الليالي البيضاء

الكتاب : **الليالي البيضاء.**

الكاتب : **فيودور ديستوفيسكي.**

الفئة : **أدب.**

رقـــم الإيداع : **2025- 17608**

الترقيم الدولي : **978- 633- 8330- 16- 3**

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الليالي البيضاء

دوستويفسكي

مقدمة

لا شك أن اسم هذا الأديب العظيم يظل مرسومًا في ذاكرة كل قارئ، فهو واحد من أقطاب الأدب الإنساني التي لا يمكن أن تُنسى، الكاتب الروسي الذي صنع ثورة أدبية، والفيلسوف الذي أرسى دعائم فكرية خالدة في الأدب الروسي. لقد رحل عن عالمنا ليدرك الجميع بعد وفاته، أن هذا الكاتب ليس مجرد كاتب عادي، بل هو أحد أعظم الروائيين الذين أثّروا في مسار الأدب العالمي. مع ذلك، يبدو أن ما ناله من تقدير في الأدب العربي لا يتناسب مع مكانته السامية، إذ لم تحظ أعماله بما تستحق من اهتمام حقيقي، ولم يُعرَف أدبه بالشكل الذي يتناسب مع عظمته في أوساط القراء العرب.

لعل السبب في ذلك يعود إلى ترجمات أعماله التي غالبًا ما كانت تتم عبر لغات وسيطة، مما أثر على دقة الصياغة وكشفها للمكنونات البلاغية والرمزية في الأدب الروسي. وهكذا، فقد الكثير من النصوص تأثيرها العاطفي واللغوي الفذ الذي كان دستويفسكي قادرًا على تصويره

بعبقرية، فتبدلت بعض الصور الشاعرية المدهشة، وتحجرت معاني ذات مغزى عميق. وبالرغم من هذه العقبات، لا يمكن إنكار الجهود الجبارة التي بذلها مترجمون كبار مثل سامي الدروبي وغيرهم، الذين نقلوا أعماله إلى العربية بكل ما أوتوا من معرفة وحب لهذا الكاتب الفذ، حتى في ظل الظروف الصعبة التي كانوا يواجهونها، عندما كان عدد دارسي اللغة الروسية محدودًا للغاية.

ما أرجوه من هذه الكلمات أن يفتح الباب أمام حركة أدبية جديدة تُعيد "الروح" إلى أعمال دستويفسكي، وتعيد صياغة ترجماتها وفقًا لمستوى يليق بعظمته، ويُبرز تلك الجماليات التي ربما ضاعت في بعض الأحيان.

أما في هذه المقدمة، فلن أغرق في سيرة الكاتب أو أعدد مؤلفاته الأخرى، فما كتب عن ذلك الكثير، وكتبه تتوافر بسهولة في كل مكان، بما في ذلك الإنترنت. لكن ما أود التركيز عليه هو روايتنا هذه التي كتبها دستويفسكي عام 1847، ونُشرت في 1848، وهي "الليالي البيضاء". ومدينة سان بطرسبورج هي مسرح هذه الرواية الساحرة.

باختصار، فإن "الليالي البيضاء" هي الظاهرة الطبيعية الفريدة التي تحدث في فترات معينة من العام، حيث يَسود الغسق الطويل نتيجة لتساقط العوالق الدقيقة في الهواء، وتستمر هذه الظاهرة في القسم الشمالي من سان بطرسبورج، حيث يتلون الأفق بألوان لا يمكن أن تُرى في أي مكان آخر. تبدأ هذه الظاهرة بحسب الحسابات الفلكية في الحادي عشر من يونيو وتستمر حتى اليوم الثاني من يوليو، لكن تأثيرها الفعلي يمتد حتى السادس عشر من يوليو. تلك هي "الليالي البيضاء"، التي ألهمت دستويفسكي ليكتب عنها، ومعها العديد من الكتاب الروس الذين تذوقوا سحر هذه الظاهرة.

في روايته، تمكن دستويفسكي من تجسيد هذه الأجواء الساحرة في تناغم مع مشاعر أبطاله. وصف تلك اللحظات المدهشة من الحياة في مدينة سان بطرسبورج برقة شاعرية جعلت القارئ يشعر وكأنه جزء من هذا المشهد الفريد، يشارك أبطاله مشاعرهم المتضاربة بين الأمل والحزن، بين السعادة والقلق. هذا السحر الذي يبعثه الليل المضيء بظلاله الطاغية كان بمثابة مرآة لأعماق الشخصية الروسية في تلك

الحقبة، ليعكس بصورته البليغة واللغوية ذلك التناقض الذي يميز روح الإنسان في لحظات التحول.

أما مدينة سان بطرسبورج التي تدور بها أحداث العمل، فهي المدينة التي أسسها القيصر بطرس الأول في عام 1703، وظلت عاصمة الدولة الروسية لأكثر من قرنين، وتحول إسمها إلى بتروجراد من عام 1914 حتى عام 1924، ثم تغير الإسم إلى لينينجراد "مدينة لينين" منذ عام 1924 وحتى عام 1991. ومنذ ذلك العام إستعادت إسمها القديم بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي وتفككه، وهي ثاني أكبر المدن في روسيا، وتمثل واحدة من أهم المراكز الثقافية والفنية، ويكفي أن بها متحف "الإرميتاج" الشهير، وهو أحد أكبر وأعظم المتاحف في العالم. وما زالت تلك المدينة تمثل العاصمة الثقافية لروسيا. تحكي الرواية قصة حب غير عادية بين الحالِم والفتاة "ناستنكا"، يمتزج فيها الخيال بالواقع، وتتشابك فيها المشاعر الإنسانية المُعذبة والمضطربة. وفي نموذج بطرسبورج يتحدث بطلنا عن مدينته، وعن أنهارها التي تمثل جزءًا لا يتجزأ من حياة المدينة، متأثراً في كل أحاسيسه بالطقس وغروب الشمس وشروقها... إلخ. كما تأثر الكاتب بمعمار مدينته

وبيوتها. فكانت المنازل في بطرسبورج هي الصديق الوحيد لبطلنا "الحالم".

وبطرسبورج ليست مجرد مدينة، بل إنها رمز لجانب من جوانب الروح الروسية، وهي المدينة الغامضة للحالمين، تحنو عليهم تارة وتقسو تارة أخرى، ولها أركانها الخاصة التي يسكنها "الحالمون"، وأولئك الذين تتملكهم الوحدة وتجيش أرواحهم بالعواطف الهائمة بلا مستقر لها، ويقول "دوستويفسكي" حول تلك الأماكن: "... يوجد في بطرسبورج العديد من الأركان والأحياء الغريبة التي ربما لا تعرفين عنها شيئاً، وتلك الأركان لا تطل الشمس عليها مثلما تشعُّ على جميع سكان بطرسبورج، بل شمس أخرى جديدة وغريبة، وكأنما هي شمس صُنعت خصيصاً لتلك الأحياء، فتشرق عليها بأضواء فريدة مختلفة"

يتجلى تأثير مدينة بطرسبورج على أعمال دستويفسكي بشكل واضح في معظم مؤلفاته، حيث كان لهذه المدينة حضور قوي في أكثر من عشرين عملاً من مجموع أعماله التي تجاوزت الثلاثين. كانت بطرسبورج بالنسبة له أكثر من مجرد مكان، بل كانت روحًا حية تنبض

في كل سطر من سطور رواياته، فكان للمدينة تأثير لا يُمحى على أسلوبه الأدبي وفكره، مما جعلها جزءًا لا يتجزأ من عالمه الروائي، مثلما كانت مصدرًا للإلهام لعدد من الكتاب الروس العظام مثل بوشكين وجوجول.

يُعبر المترجم القدير الدكتور أنور إبراهيم عن هذا الحضور المهيب للمدينة في أدب هؤلاء الكتاب في كتابه "الروائي ومدينته - بطرسبورج دستويفسكي"، قائلاً: "يبدو لنا حضور بطرسبورج في أعمال "بوشكين" و"جوجول" و"دوستويفسكي" أمراً طبيعياً وعادياً، فالأدب الذي كتبوه مشبع بروح هذه المدينة، بجمالها الأخاذ وفتنتها وجاذبيتها، بحيث يصعب ألا تنساب في إبداع من عرفها، سواءً أكان رساماً أم كاتباً أم شاعراً." وكأن هذه المدينة، التي لا تفارق أذهان من يراها، هي مصدر إلهام لا ينضب، تمتزج فيها الحواس والشعور، وكأنها كائن حي يتغير في كل لحظة.

تستمر كلمات الدكتور إبراهيم في وصف المدينة، قائلاً: "إنها ليست مدينة مُلهمة فحسب، إنما هي كيان حي، ينفرد كل من يعرفه بعلاقة خاصة به، علاقة فريدة لا تتكرر، والمدن كالبشر، لكل مدينة وجه، لكن

وجه بطرسبورج متنوع للغاية، قابل للتغيُّر، أحياناً يبدو قريباً منك، مألوفاً لديك، وأحياناً غريب وعجيب: بطرسبورج مدينة متقلبة الأهواء، يتغير مزاجها في لحظة، يتوقف هذا أحياناً على الضوء، أو على الشمس، فتارة تكون سماؤها صافية رائقة، وتارة قاتمة عبوسة منفرة".

هذا التباين في شخصية المدينة يعكس ببراعة التناقضات النفسية التي تميز أبطال دستويفسكي، فهم يعيشون في صراع داخلي دائم بين الأمل واليأس، وبين الضوء والظلام، مثلما هو الحال في شوارع بطرسبورج، التي تعكس في كل زاوية منها هذا التذبذب بين الجمال والكآبة.

ومن جانب آخر، يصف دستويفسكي علاقته بالمدينة بطريقة مدهشة، حيث يقول: "إنها مدينة أشباه المجانين.. من النادر أن يصادف المرء كل هذه التأثيرات الكئيبة، والحادة والغريبة على روح الإنسان، مثلما يصادفها في بطرسبورج." وهنا يظهر الفارق العميق بين المدينة وأبناءها، فتتحول بطرسبورج إلى مرآة لأفكار دستويفسكي العميقة وتصوراته المظلمة عن الحياة الإنسانية.

وفي الختام، أترك لكم المجال لتعيشوا مع هذه الكلمات التي يعبر بها دستويفسكي عن عالمه الروائي المدهش، آملاً أن يجد القارئ فيها المتعة الأدبية والروحية التي يترقبها، وأن تثير في أعماقه تأملات وانفعالات تفتح أمامه أفقًا أوسع لفهم مشاعر الإنسان المعقدة والعميقة التي يفيض بها عالم هذا الروائي العظيم.

الليلة الأولى

كان الليل في ذلك اليوم ساحرًا حقًا، ليلٌ لا يضاهيه إلا تلك الليالي التي نعيشها في صبانا، حيث السماء مغطاة بوشاح من النجوم التي تضيء وتبتهج، حتى تكاد تشعر عند التطلع إليها أن قلبك يطمئن ويسكن في حضورها. تلك السماء التي تدفعك، دون أن تشعر، لأن تسأل: هل يمكن لبشر، بتقلباتهم النفسية وأهوائهم المزعجة، أن يعيشوا تحت قبة سماء كهذه؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجًا، نعم، ساذجًا إلى حد بعيد، لكنني أتمنى من أعماق قلبي أن يدور هذا التساؤل في صدوركم، أيها القراء الأعزاء، أكثر فأكثر، وأن تدفعكم تلك السماء الساطعة للتفكر في معانيها العميقة.

أما عن هؤلاء الذين ذكرتهم، أولئك أصحاب الأهواء المتقلبة والنفوس البغيضة، فإنني لا أستطيع إلا أن أسترجع في ذهني سلوكي الطيب في هذا اليوم، الذي كان يحمل لي نوعًا فريدًا من الحزن. منذ الصباح الباكر، كنت أشعر بحزن عميق يكاد يعصر قلبي. وكان يراودني

شعور مفاجئ بأن الجميع قد هجرني وتخلوا عني، حتى أصبحت أشعر بالعزلة التامة. وأنت، أيها القارئ، قد تتساءل: من هو هذا "الجميع" الذي أتحدث عنه؟ وأجيبك: لقد عشت في بطرسبورج طوال ثمانية أعوام، لم أتمكن خلالها من أن أصادق أحدًا. لكن، هل أحتاج إلى الأصدقاء؟ في الواقع، لقد أصبحت على دراية تامة بكل زاوية من زوايا هذه المدينة. والشعور الذي جعلني أظن أن الجميع قد هجروني، هو ببساطة السفر الجماعي المفاجئ لسكان المدينة إلى ضيعاتهم في الريف.

تملكني شعور قاسٍ بالوحدة والضجر، فقررت أن أطوف شوارع المدينة لثلاثة أيام متتالية، غارقًا في حزن عميق، لا أفهم تمامًا ما الذي يحدث لي. كنت أمشي في شارع نيفسكي، أو أتجول في حديقة المنتزه، أو أسير على كورنيش النهر، لكنني لم أصادف أي وجه من الوجوه التي اعتدت أن أراها في هذه الأماكن في ذات الساعة من كل يوم طوال العام. كان أولئك الأشخاص لا يعرفونني بالطبع، لكنني كنت قد تعلمت تمييزهم عن كثب، ودرست ملامح وجوههم، فأنا أعلم من أين يأتون،

وأين يقفون، وكيف يبدون حينما يكونون سعداء أو حزناء. وكان يُفرحني رؤيتهم في حال من المرح، ويُحزنني رؤيتهم في حال من الكآبة.

لكنني نجحت في خلق ما يشبه الصداقة مع رجل مسن، كنت أراه كل يوم في نفس الساعة بالقرب من نهر فونتانكا. كانت ملامحه تدل على وقار عميق، وعيناه تحملان شيئًا من التأمل، بينما كان يدندن بصوت خافت، ويُلوح بيده اليسرى في الهواء. أما يده اليمنى فكانت تمسك بعكاز طويل ذي مقبض ذهبي. لقد اعتاد هذا الرجل أن يراني، وكأنني رفيق له في كل يوم. ومن خلال هذه اللقاءات اليومية، أصبحت متأكدًا بأن غيابي عن الموعد المعتاد عند نهر فونتانكا كان سيبعث في نفسه شعورًا بالضيق. ولذلك، كانت تحياتنا لبعضنا البعض دائمًا مميزة؛ لا تقتصر على رفع قبعاتنا فقط، بل كان كل منا يبادل الآخر تحية مشبعة بالاحترام والمودة، خاصة عندما نكون في مزاج جيد. وإن مر يومان دون أن نصادف بعضنا البعض، ثم التقيْنا في اليوم الثالث، كنا نرفع أيدينا بشكل عفوي تجاه قبعاتنا، ثم نخفضها بسرعة، وكأننا نكتفي فقط بالإشارة العابرة لبعضنا البعض، غير أننا في الحقيقة كنا نحتفظ في قلوبنا بالكثير من التقدير المتبادل.

صارت المنازل مألوفة لديَّ أيضاً. وعندما أسير بينها، تبدو وكأن كلًّا منها يُقبِل علي في الشارع، متطلعاً نحوي بكل نوافذه، يكاد أن يصيح بي: "مرحباً، كيف حالك اليوم؟ أنا بصحة جيدة والحمد لله، وسوف يضيفون إلى طابقاً جديداً في شهر مايو"، أو يقول: "كيف صحتك؟ سوف يبدأون في ترميمي غداً"، أو "أتدري؟ كدت أن أحترق وتملكني الهلع والخوف"... إلخ. كان من بينها منازل أثيرة إلى قلبي، وأخرى صارت من رفاقي المقربين. وقد تهيأ أحد هذه المنازل للعلاج لدى المهندس المعماري في الصيف المقبل. وسوف أتعمَّد المرور به كل يوم؛ كي أطمئن إلى أنهم سوف يقومون بترميمه ودهانه بالصورة اللائقة. وأدعو الله أن يحفظه لنا.. ولكني لن أنسى أبدًا حكاية ذلك المنزل الجميل ذي اللون الوردي المشرق. كان بيتًا مبنيًا من الصخر، ودوداً لطيفاً لأبعد الحدود، يرمقني ببشاشة ومودة، بينما يرمق بشموخ وفخر المنازل الخرقاء المجاورة. وكان قلبي يخفق طرباً كلما سرت بجانبه. وفجأة، في الأسبوع الماضي، مضيت أتجول في شارعه، وتطلعت نحو رفيقي، فسمعته يصرخ شاكياً: "إنهم يدهنونني باللون الأصفر!". يا للأوغاد الهمج! إنهم لا يرحمون أي شيء، لا الأعمدة ولا

الأفاريز، حتى اكتسى صاحبي باللون الأصفر، وصار شبيهاً بطائر الكناريا. فتملكني الهم والحزن لما جرى له، وأصبحت حتى الآن لا أقوى على النظر إلى رفيقي البائس المشوَّه، الذي صبغوه على هذا النحو بلون إمبراطورية السماء[1].

هكذا، أظنك أيها القارئ قد أدركت طبيعة معرفتي بمدينة بطرسبورج.

صرحت سابقاً عن ذلك الضجر الذي ألمَّ بي لثلاثة أيام حتى أدركت علَّته. كنت أشعر بالاكتئاب في الشارع "فهذا غائب، والآخر رحل، ولا أدري أين إختفى الثالث؟"، حتى وأنا في البيت كنت أراني غريبًا عن نفسي. وظللتُ أتساءل طوال ليلتين: تُرى، ما الذي ينقصني في هذا الركن الخاص بي؟ وما الذي يُشعرني بهذا الضيق عند البقاء به؟

---

[1] إمبراطورية السماء: المقصود بها الصين التي يُرمز إليها باللون الأصفر، وهو التعبير الذي كان يستخدمه الصينيون، وترجمته في الأصل: البلاد الواقعة تحت السماء، حيث إعتقدوا أن بلادهم ترعاها السماء، وأن الإمبراطور هو مبعوث السماء والمفوض منها بالسلطة لحكم البلاد. - المترجم

تطلعتُ في بلاهة إلى الجدران الخضراء الملطخة بالسخام، وإلى السقف الذي تدلَّت منه بعض خيوط العنكبوت، والذي نجحت "ماترينا" نجاحًا باهرًا في إزالتها قبل ذلك. وصرت أتفحَّص قطع الأثاث قطعةً بعد الأخرى، ومقعداً بعد الآخر، وأنا أفكر قائلاً في نفسي: ربما يكمن هنا سبب ذلك الشعور بالكآبة؟ "ذلك لأن تبديل مقعد واحد فقط من مكانه بالأمس يجعلني أشعر بالغربة" ورنوت ببصري أتطلع عبر النافذة، فلم يُجْدِ كل هذا نفعاً في شيء، ولم يقلل هذا بأي قدر من وطأة الشعور بالثقل الجاثم على صدري. وفكرت أن أنادي "ماترينا"، وقمتُ على الفور بتوبيخها توبيخاً أبويّاً، لخيوط العنكبوت العالقة، ولقذارة المكان بصورة عامة، لكنها إكتفت بالنظر نحوي بنظرات الدهشة، وغادرتني دون أن تنطق بكلمة واحدة. وهكذا، ظلت خيوط العنكبوت تحتل موقعها في سلام.

أخيراً، إستطعتُ صباح اليوم أن أحزر السرَّ في هذا الشعور. لقد "طفشوا" جميعاً مني إلى ضيعاتهم بالريف. وأرجو أن تلتمسوا لي العذر لإستخدام تلك الكلمة العامية، حيث إنني لستُ في حال تسمح لي بإختيار الألفاظ الراقية؛ لأن جميع المقيمين في بطرسبورج، إما إنتقلوا

إلى ضيعاتهم، أو غادروا، وهم الآن في طريقهم إليها، ولأن كل سيد محترم وقور الهيئة، عندما ينادي حوذيّاً بعربته، أدرك في الحال أنه رب أسرة مبجل، يتأهب للسفر مع عائلته إلى ضيعته الريفية؛ كي يستمتع بقدر من الإستجمام بعد عناء عام من العمل المنهك، ولأن كل عابر سبيل، قد إكتسى الآن بهيئة خاصة تماماً، يكاد أن يصرِّح لكل من يصادفه قائلاً: "نحن هنا الآن أيها السادة مروراً عابراً، وبعد ساعتين سوف نرحل إلى ضيعتنا".

هناك، أرى نافذة تُفتح، وفي البداية ظهرت خلفها أنامل دقيقة بيضاء بلون السكَّر، وصارت تنقر فوق الزجاج، ثم أطلَّت برأسها فتاة حلوة الوجه، مناديةً على بائع الزهور وأصص الورد. وبدا لي أن تلك الزهور تُشترى فقط لأجل الشراء، أي ليس للإستمتاع ببهجة الربيع وشذى الأزهار في ذلك الجو الخانق داخل البيت، بل كي يحملها أصحابها معهم، ويسرعون بها إلى الضيعة الريفية.

وقد بلغت حدّاً من التفوق في موهبتي الفريدة من نوعها، حتى إستطعتُ من النظرة الأولى أن أحدد بلا أدنى خطأ، نوعية الضيعة،

وطبيعة المسافر الذي يعيش بها. وإكتشفتُ أن قاطني جزيرة أبتيكارسكي وجزيرة الصخر[2] وطريق بيترجوف، يتميزون بالسلوك الرفيع المدروس، والثياب الصيفية الأنيقة، والمركبات الفاخرة التي يأتون فيها إلى المدينة. أما سكان بارجلوف والمناطق التالية فهم يبعثون "الإيحاء" بالوقار، وذلك بهيئتهم الرزينة الحكيمة، ولكن يختلف عنهم ساكن جزيرة كرستوفسكي بطابعه المرح دومًا.

وعندما أصادف موكباً طويلاً لعربات الخيول، يتقدم نحوها المسافرون بخطى وئيدة، حاملين الأمتعة بأيديهم، ويضعونها داخل العربات المحملة بتلال من شتى أنواع الطاولات والمقاعد والأرائك، التركية منها وغير التركية، وغيرها من الأدوات المنزلية، وفوق قمة كل هذا التل من الأغراض، تتربع طباخة نحيلة القوام، تعتني بأغراض سيدها وتحرسها مثل قرة عينيها، أو عندما أشاهد القوارب تتهادى على

[2] مجموعة من الجزر التي تقع في القسم الشمالي لدلتا نهر نيفا، وتشتهر بطبيعتها الساحرة، وتعد مناطق إستجمام للأثرياء، وهي تقع على بعد خمسة عشر كيلومترًا من بطرسبورج. - المترجم

نهر نيف أو نهر فونتانكا، متجهة صوب النهر الأسود[3] أو الجزر، وهي مكتظة بشتى أحمال الأمتعة والأدوات المنزلية، حينئذ، أشعر أن مشاهد تلك القوارب والأحمال تتكاثر وتتضاعف في عينيَّ حتى تتيبسا، ويلوح لي أن الجميع قد هبوا مغادرين، والكل يرحل في قوافل بأكملها إلى الضياع الريفية، وتوشك بطرسبورج أن تتحول إلى صحراء قاحلة، ويتملكني في النهاية شعور بالخزي والمرارة والحزن، فلم يكن لديَّ ضيعة ولا وجهة أنتقل إليها، ولا مبرر للسفر إلى أي مكان. ولكني في تلك اللحظة كنت مستعداً للسفر مع أي عربة، أو أتبع أي سيد من أصحاب الهيئات الوقورة الذين يستأجرون عربات الخيول؛ كي لا أظل وحيداً، غير أن أحداً لم يتقدم لدعوتي على الإطلاق، ونسوني جميعاً بمعنى الكلمة حرفيّاً، حيث إنني كنت غريبًا عنهم حرفيّاً.

مضيتُ أسيرُ وأجوبُ الشوارع طويلاً دون هدى، حتى صرت كعادتي لا أعرف المكان الذي وصلت إليه، ووجدت نفسي عند تخوم المدينة. وفي لمح البصر غمرني شعور بالفرحة والمرح، وإنطلقت أخطو خلف

[3] النهر الأسود: أحد روافد نهر نيفا. - المترجم.

حدود المدينة، ثم عبرت بين المروج والحقول، لا أصغي إلى تعب أو إرهاق، بل شعرت فقط بكل جوارحي، أن روحي قد تحررت وتخلصت من حمل ثقيل جاثم بداخلها. وأخذ المسافرون جميعاً يتطلعون نحوي بمودة ولطف، وكأنهم يلقون إليَّ بالتحية، حيث فاضت وجوههم ببهجة لا أعرف مصدرها، وكانوا جميعاً بلا إستثناء يدخّنون السيجار الملفوف.

تملكتني سعادة لم أشعر بها من قبل. وفجأة حسبتني في إيطاليا؛ ذلك لأنني أصبحت مشدوهاً تماماً بروعة الطبيعة حولي، أنا المواطن العليل الذي أوشك على الإختناق بين جدران المدينة.

تتسم طبيعة مدينتنا بطرسبورج، بشيء مؤثر يتخلل الروح، لا يمكن تفسيره، وذلك عندما تستعرض فجأة كل مظاهر قوتها وعظمتها مع قدوم الربيع، وتفيض بما منحتها السماء لها من هبات، فتكتسي بالزهور، وتطلقها حتى تُغرق الكون بها... وتذكّرني على نحو عفوي بتلك الفتاة الذابلة المريضة، التي تنظرون نحوها أحياناً بنظرات العطف والشفقة، وأحياناً أخرى بالحب الجارف، وربما لا تلتفتون إليها

في أوقات أخرى، لكنها فجأة وفي لمح البصر، تتحول بصورة غامضة إلى فاتنة ساحرة الجمال، تجعلك تتساءل في نفسك بصورة لا إرادية وأنت في إنبهار ونشوة: أي قوة جبارة بعثت بهذا اللهب المتأجج في هاتين المقلتين الحزينتين الحالمتين؟ ما الذي فجَّر الدماء في هاتين الوجنتين الشاحبتين؟ كيف إكتست هذه الملامح الرقيقة للوجه بكل هذا العشق؟ ما الذي جعل هذين النهدين يفوران على هذا النحو؟ وما الذي بعث فجأة، بكل هذه الحيوية والحياة والجمال في وجه الفتاة البائسة، وجعل ثغرها يشرق بمثل هذه البسمة، وينثر تلك الضحكات الفاتنة الرنانة؟ انظروا حولكم وإبحثوا عن أحد ما، وسوف تحزرون... لكن اللحظة تنقضي، ولعلكم في الغد سوف تلتقون مرة أخرى بتلك النظرة الزائغة الحالمة نفسها، والوجه الشاحب عينه، ونفس الخضوع والوجل في الحركة، وحتى الندم، وبقايا نوع من الشوق والإحباط المميت، لزوال ولع عابر لم يدم... كما تتحسر أيضاً؛ لذبول ذلك الجمال الوامض بهذه السرعة وإلى الأبد، وأنه قد تلألأ بحسنه البراق هذا أمامكم عبثاً وخداعاً، وتأسف لأن الزمن لن يسعفك لعشقها... رغم كل ذلك، إلا أن ليلتي كانت أفضل أيامي. وإليكم ما جرى:

عدتُ أدراجي إلى المدينة في وقت متأخر للغاية، وأشارت عقارب الساعة إلى العاشرة عندما قاربت الوصول إلى البيت. كان طريق عودتي يمر عبر كورنيش النهر، حيث لا تقع عيناك على كائن حي في تلك الساعة. ففي الحقيقة إنني أقيم في أقصى أحياء المدينة. وسرت وأنا أغنِّي، حيث يحلو لي أن أترنم بلحن في داخلي كلما شعرت بالفرحة، مثلي في ذلك مثل أي إنسان سعيد يفتقر إلى الصُّحبة وإلى الرفاق الودودين، وإلى من يمكن مشاركته لحظات البهجة والمرح. وفجأة، وقعت في مغامرة لم تكن في الحسبان على الإطلاق.

شاهدت فتاة تتكئ إلى الإفريز الحديدي لكورنيش النهر، وبدا لي أنها تحدِّق بشغف إلى المياه العكرة للنهر. كانت تضع قبعة صفراء جميلة، وشالاً أسود يتدلى فوق كتفيها. فكرتُ في نفسي: "لا بد أن هذه الفتاة سمراء البشرة". ويبدو أنها لم تنتبه إلى وقع خطواتي فلم تحرِّك ساكناً. ومررتُ بجانبها حابسًا أنفاسي، بينما خفق قلبي بقوة، وفكرت: "يا للغرابة! إنها شاردة للغاية في أمر من الأمور"، ثم توقفتُ فجأة متسمراً في مكاني. فقد سمعتُ صوت نشيج مكتوم. نعم، هذا حقًّا ما جرى، كانت الفتاة تبكي، وبعد لحظة صارت تشهق ببكاء مرير. يا ربي! إنقبض

قلبي بشدة. ورغم طابعي الخجول مع النساء، إلا أن تلك اللحظة كانت إستثنائية، فخطوت عائداً إليها، وكدت أقول لها بثبات: "سيدتي"، لو لم أكن أدرك أن هذا النداء تردد ألف مرة في جميع الروايات الروسية لدى المجتمع الراقي، مما جعلني أمتنع عن نطق تلك الكلمة. وبينما أخذت أبحث في ذهني عن الكلمة المناسبة، تمالكت الفتاة شتات نفسها، وعادت إلى وعيها متلفتة حولها، وإنسلَّت بخفة بالقرب مني خافضة رأسها، ومضت تسير على الكورنيش. أسرعتُ أتبعها في الحال، لكنها شعرت بخطواتي خلفها، فتركت الكورنيش، وإجتازت الشارع إلى الرصيف المقابل. لم أجرؤ على عبور الشارع. وصار قلبي يرتجف مثل قلب طائر سقط في قبضة صياده. وفجأة، وقعت في هذه اللحظة المصادفة التي ساعدتني.

على الجانب الآخر من الرصيف، ظهر فجأة بالقرب من فتاتي المجهولة، سيد يرتدي حُلَّةً سوداء من تلك المخصصة للمناسبات الإحتفالية "الردنجوت"، كان الرجل في عمر الوقار، لكن مشيته كانت بعيدة كل البعد عن الوقار. فسار يترنح في خطواته، ويستند بيديه إلى الجدران بحذر. ومضت الفتاة تسرع مثل السهم، والخجل بادٍ عليها،

مثلها مثل كل الفتيات اللاتي يرفضن دعوة أحد إلى مرافقته ليلاً. وبالطبع لم يكن بوسع السيد المترنح في مشيته من الثمالة أن يلحق بها، لولا أن الأقدار أوحت له بوسيلة أخرى. وفجأة، ودون أن ينطق بحرف، قفز السيد من مكانه، وأطلق ساقيه راكضاً بكل قوته؛ كي يلحق بفتاتي المجهولة. وإنطلقت الفتاة تسابق الريح بدورها، لكن السيد المحلق أوشك أن يدركها، وأخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً حتى لحق بها، فصرخت الفتاة من الفزع. وأحمد الأقدار التي جعلتني حينذاك حاملاً عصاي المبرومة في يدي اليمنى. وفي لمح البصر قفزت إلى الجانب الآخر من الرصيف، وفي لمح البصر أيضاً أدرك السيد المتطفل طبيعة الوضع، وأخذ في الإعتبار المواجهة المحتملة، فتراجع صامتاً مبتعداً عنا. وعندما صرنا على مسافة بعيدة للغاية منه، حينئذ فقط أطلق نحوي شتى عبارات الإحتجاج، ومختلف الهتافات الحماسية. ولكن لم تصل لأسماعنا سوى شذرات من كلماته. وقلت لفتاتيالمجهولة:

أعطني يدك أمسك بها؛ حتى لا يجرؤ على التعرض لنا ثانية.

مدَّت يدها مستسلمة في صمت، وشعرت بها ترتجف من شدة الإنفعال والخوف. ولتحلَّ عليك البركة أيها السيد المتطفل، فكم صرت ممتناً لك في هذه اللحظة! نظرت نحوها بطرف عيني، كانت سمراء فاتنة كما حزرت قبلاً، وما زالت تترقرق حبات صغيرة من الدمع فوق أهدابها السوداء، لم أعرف إن كانت أثر الخوف من ملاحقة السكير لها، أو إنها أثر حزن دفين بداخلها. لكن إبتسامة بزغت بين شفتيها على إستحياء. وإختلست بدورها نظرة خاطفة نحوي، ثم إحمرَّت قليلاً وخفضت عينيها. وقلت لها:

- أرأيتِ؟ لماذا صددتِني؟ لو كنت معك هنا لما جرى أي شيء مما حدث.

- أنا لا أعرفك، وظننت أنك أيضاً...

- وهل تعرفينني الآن؟

- قليلاً، فعلى سبيل المثال، ما الذي يجعلك ترتجف على هذا النحو؟

تملكني الإنبهار بأن فتاتي على هذا القدر من الذكاء، والذي لا يتعارض مع الجمال، وأجبتها:

- نعم، يبدو أنكِ أدركتِ من النظرة الأولى طبيعة الرجل الذي تتحدثين معه. ولم تحزري سوى الحقيقة، فأنا أشعر بالخجل مع النساء، وأوافقكِ أنني أشعر بالإنفعال على نحو لا يقل عن الإنفعال الذي تملكك منذ دقيقة مضت، عندما أثار ذلك السيد فزعك. ويتملكني الآن نوع من الخوف، كأنني أرى حلماً بالضبط، بل حتى في الحلم لم أتخيل أنني في يوم من الأيام سوف أتحدث مع أي إمرأة كانت.

- كيف؟ أيُعقل هذا الأمر؟

- نعم، فعندما ترتجف يدي كما تشعرين، فهذا لأنها لم تمسك أبداً بمثل هذه اليد الصغيرة اللطيفة. لقد هجرت النساء تماماً، أي أنني لم أعتد التواصل معهن في حياتي؛ وذلك لأنني أعيش وحيداً.. حتى أني لا أعرف أسلوب الحديث معهن. وها أنا الآن، لا أدري إن كنت تفوهت بشيء أحمق يزعجكِ. أجيبيني بصراحة، ولن يغضبني رأيك..

- لا، لا شيء من هذا، على العكس، وإن كنت تطالبني بالصراحة فسوف أخبرك بأن النساء يعجبن بالخجول مثلك، ولو أردت معرفة المزيد فإعلم أن خجلك يروق لي أيضاً، ولن أتركك حتى تصحبني إلى باب المنزل.

قلت وأنا ألهث من شدة الحماس:

- سوف أطرد الآن كل الخجل من داخلي، وأتخلى عن هذه الوسائل.

- وسائل! عن أية وسائل تتحدث؟ هذا كلام أحمق.

- آسف، وإعذريني، لقد أفلتت هذه الكلمة من لساني دون قصد. ولكني لم أستطع في هذه اللحظة نبذ الرغبة في...

- الإعجاب؟ أليس هذا ما تقصده؟

- نعم، ولكن.. أستحلفك بالله أن تترفقي بي، رفقاً بي، وسوف يمكنكِ الحكم على طبيعتي. لقد بلغت ستة وعشرين عاماً، ولم أعرف طوال سنوات عمري إمرأة أبداً، فكيف يمكنني إختيار الكلمات المناسبة والحديث بلباقة؟ فمن الأفضل لكِ أن أتحدث بصدق

وصراحة، وأكشف ما في باطني.. ولا أستطيع الكتمان عندما يتحدث قلبي. على أية حال فالأمر سيان، ولكِ أن تصدقي أنني لم أعرف إمرأة أبداً أبداً طوال عمري، وليس لديَّ أي معارف أو صداقات، بل أظل أحلم فقط كل يوم، بأنني يوماً ما، سوف ألتقي بإحداهن في النهاية. وآه لو تدرين كم مرة وقعت في الغرام على هذا النحو!

- ولكن، كيف حدث لك هذا؟ ومن هي التي عشقتها؟

- أنا لم أعشق أحداً، بل عشقت فتاة الأحلام، التي تتراءى لي في المنام فقط. فأنا أختلق في أحلامي روايات كاملة.. أنتِ لا تعرفينني جيداً.. لكن في الحقيقة لا مفر من التعرف إلى النساء، وقد إلتقيتُ بإمرأتين أو ثلاث. ولكن أي نوع كنّ؟ مجرد عاملات في البيوت! والآن سوف أجعلك تضحكين. فكرتُ عدة مرات في الحديث، مجرد الحديث فقط، مع إحدى النساء الأرستقراطيات في الشارع. وبالطبع عندما تسير بمفردها، ينبغي عليَّ التحدث بأسلوب رقيق خجول ووقور، والتصريح لها بأنني أكاد أموت من الوحدة، وألا تصدَّني، حيث إني لا أمتلك وسيلة من وسائل التقرب إلى أية إمرأة، والإيحاء لها بأن

من واجبات المرأة الإستجابة لرجاء الشخص الخجول التعيس مثلي، وأخبرها بأن كل ما أصبو إليه في النهاية، أن تحدِّثني ببضع كلمات بريئة تحمل مشاعر التعاطف، ولا يصيبها النفور مني من الوهلة الأولى، وأن تثق في صدق كلماتي، وتُصغي لما أقوله. ويمكنها أن تسخر مني بعد ذلك كما يحلو لها، على أن تمنحني الأمل، وتحدثني بكلمتين، كلمتين فقط، ثم يمكننا الافتراق بعد ذلك إلى الأبد! ها أنتِ تضحكين الآن. على أية حال، كان هذا هو الهدف مما سردته.

- لا تغضب، لقد ضحكت؛ لأني أراك عدوَّ نفسك، فلو أنك جرَّبت إقتحام التجربة لنجحت، وربما كان ذلك في الشارع، فكلما تناولتَ مثل هذه الأمور ببساطة صارت أفضل.. ولا توجد في العالم إمرأة جيدة يمكنها أن ترفض منحك هاتين الكلمتين، اللتين تلتمسهما لديها بكل الخجل، إلا لو كانت إمرأة حمقاء، أو في مزاج عكر بتلك اللحظة.. وبالمناسبة، فهذا الأمر ينطبق عليَّ أيضًا.. ولكنها سوف تراك مختل العقل بالتأكيد... أنا أحكم على الأمور من وجهة نظري الشخصية، حيث إنني أعرف الكثير حول حياة الناس في الدنيا.

هتفتُ مجيبًا:

- شكراً جزيلاً لكِ، أنتِ لا تدرين قدر صنيعك لي بهذه الكلمات.

- حسناً، حسناً، ولكن أخبرني، كيف أدركتَ أنني إمرأة من ذلك النوع.. الجدير بالإهتمام والصداقة.. أو بالمعنى الواضح لست مثل عاملات البيوت كما تطلق عليهن؟ ولماذا قررتَ الإقتراب مني؟

- لماذا؟ كيف يمكنك التساؤل؟ لقد كنتِ بمفردك، وذلك السيد تجرَّأ أكثر من اللازم، والوقت ليلًا، ألا ترين أن ما فعلتُه كان واجباً عليَّ؟

- لا لا، أنا أعني قبل ذلك الحدث، هناك على الجانب الآخر من الشارع. ألم تكن ترغب في الحديث معي

- هناك؟ على الجانب الآخر؟ نعم، ولكني للحق، لا أعرف بمَ أجيبك، فأنا أخشى.. ليتك تدرين كم كنت سعيداً اليوم، سرت طويلاً، وإنطلقتُ في الغناء، حتى خرجتُ إلى ضواحي المدينة، لم أعرف قبلاً مثل هذه اللحظات البديعة طوال حياتي. أما أنتِ، فقد لاح لي أنكِ.. إعذريني لو ذكَّرتك... لاح لي أنكِ تبكين، ولم أحتمل سماع نحيبك دون أن ينقبض قلبي. وفكرتُ في نفسي: يا ربي! ألا يمكنني التخفيف من

حزنك؟ هل من الخطيئة أن أشعر نحوكِ بالعطف الخالص؟ إغفري لي إستخدامي كلمة "العطف"... ولكن، قولاً واحداً، هل يغضبكِ أني فكرت عفويّاً بالإقتراب منك في تلك اللحظة؟

ضغطت الفتاة على يدي، وخفضت رأسها، وقالت:

- دعك من هذا، كفى كلاماً، فأنا المذنبة بالحديث حول هذا الأمر. ولكني سعيدة بصواب رأيي بك. على أية حال ها أنا قد وصلت إلى منزلي، سوف أنعطف إلى هذا الزقاق، حيث يقع بيتي على بُعد خطوات، فوداعاً ولك جزيل الشكر.

- إنتظري! أيُعقل؟ أيُعقل أننا لن نلتقي ثانيةً؟ أيُعقل أن نفترق على هذا النحو، ويعود كل منا إلى حال سبيله، وكأننا لم نتلقِ؟

قالت الفتاة وهي تضحك:

- أنت لم تطلب في البداية سوى كلمتين فقط، والآن... ولكن، لن أضيف شيئًا آخر.. لعلنا سوف نلتقي مرة أخرى.

قلت لها:

- سوف آتي إلى هنا غداً، وإغفري لي إن كنت أطالبك...

- يا لك من عجول.. وها أنت بدأت تطالبني.

قاطعتها قائلًا:

- إنتظري، إنتظري، إغفري لي لو كنت أسأت التعبير في الحديث. ولكن حقيقة الأمر أنني لا أستطيع عدم الحضور غداً، فأنا رجل حالم، ولا أملك سوى القليل من الواقع في حياتي، لذلك فإن مثل هذه اللحظات أراها نادرة وثمينة، وليس بمقدوري تركها تتلاشى من أحلامي. لقد كنت أحلم بكِ طوال الليل، طوال أيام الأسبوع، وكل أيام العام. وسأعود في الغد بالتأكيد، في هذا المكان نفسه، وفي هذه الساعة عينها، وسوف تغمرني السعادة غداً، عندما أتذكر أحداث أمس. فهذا المكان صار عزيزاً إلى قلبي. ولديَّ في بطرسبورج مكانان أو ثلاثة مقربون مثله. وقد أبكتني ذات مرة تلك الذكريات مثلما فعلتِ أنتِ... فمن الجائز أن بعض الذكريات أيضاً هي التي أبكتكِ منذ عشر دقائق.. ها أنا نسيتُ نفسي مرة أخرى، فإغفري لي، وربما تغمرك السعادة هنا بدورك في يوم من الأيام...

ردَّت الفتاة:

- حسناً، على الأرجح سوف آتي غداً إلى هنا، في الساعة العاشرة أيضًا، حيث أرى أنني لن أستطيع منعك.. وفي واقع الأمر أحتاج للمجيء إلى هنا، ولكن لا تجمح بخيالك بعيداً، فأنا لا أواعدك، وأنبِّهك بأن حاجتي للحضور هنا إنما من أجل نفسي. هذا هو الحال.. وأصارحك بأنني لن أضيق بحضورك، ولو حدثت بعض المنغصات مثلما جرى اليوم فلن نلتفت إليها.. الخلاصة أنني ببساطة أرغب في رؤيتك؛ كي أحدِّثك بكلمتين. ولكن لا تسئ الظن بي، وتفكر بأنني أواعد أحداً بمثل هذه السهولة.. كان بمقدوري المواعدة لو أن... ولكن فليظل هذا الأمر سرّاً أحتفظ به لنفسي. ولكن هناك شرط مسبق..

هتفت فرحاً:

-شرط! ما هو؟ تكلمي، أخبريني بكل شيء الآن، وسوف أقبل جميع شروطك، وعلى إستعداد لتلبيتها كلها، فأنا مسئول عما أقوله، وسوف أكون مطيعاً ومهذباً... وأظنكِ صرتِ تعرفينني.

ضحكت الفتاة وردَّت قائلة:

- لهذا السبب تحديداً أدعوك للحضور غداً... فأنا أعرفك حق المعرفة. ولكن حضورك مرهون بشرط واحد، وأرجو أن تلبي ما أرجوه منك... سوف أكلمك بمنتهى الصراحة، لا أريدك أن تقع في حبي، فهذا أمر محظور.. أؤكد لك عليه، فإني على إستعداد لقبول الصداقة فقط، ولتنحصر معرفتنا في إطارها، وها هي يدي أمدُّها إليك... أما الوقوع في الحب فهو أمر محظور تماماً... أرجوك الإلتزام بهذا الشرط.

صحتُ ممسكاً بيدها:

- أقسمُ لكِ...

- كفى، لا تقسم، فأنا أعرف أن بوسعك الإشتعال مثل البارود، ولا تسئ الظن بكلامي، آه لو كنت تعلم... فليس لديَّ أيضًا أحد أتكلم معه، ولو كلمة واحدة، أو أحد ألتمس منه النصح. وبالطبع لا يمكنني البحث عن سمير في الطريق كي أخاطبه، أما أنت فإستثناء! وأنا أعرفك وكأننا في صداقة منذ عشرين عاماً.. أليست هذه هي الحقيقة؟ ألن تتبدل وتغدر بي بعد ذلك؟

- سوف ترين بنفسك، ولكني لا أدري كيف سأعيش ولو لهذا اليوم الواحد.

- عليك الإستغراق في النوم بعمق، ولتصبح على خير. وتذكر بأنني وثقت بك، وكما قلت قبل قليل: لا يجوز أن تقدم تحليلاً لكل عاطفة تشعر بها، حتى تلك العواطف البريئة، وقد عبَّرت عن فكرتك على نحو جيد للغاية، دفعني إلى التفكير بأن أئتمنك على ما في داخلي.

- هيا إفعلي أرجوكِ! ما الذي تريدين البوح به؟

- إنتظر حتى الغد، وليظل سرًّا كما هو الآن، فهذا أفضل لك، ولو أنه سوف يبدو لك من الخارج أشبه برواية من الروايات. وسوف أفصح لك عنه غدًا، ولعلي لا أفصح، وسوف أتحدث معك لاحقًا، عندما نتقرب إلى بعضنا بعضاً على نحو أكثر عمقًا.

- نعم، أوافقك الرأي، وسوف أحكي لكِ غداً كل شيء عن نفسي.. يا له من أمر يدعو للدهشة، فما يحدث لي اليوم هو معجزة حقيقية.. أين أنا يا رب السماوات؟ أيعقل أنكِ غير نادمة؛ لأنك لم تصدِّيني منذ اللحظة الأولى، كما كان يمكن أن تفعل الأخريات؟ لقد منحتِني بهاتين

الدقيقتين السعادة للأبد! نعم، السعادة، كما أنكِ صالحتِني مع نفسي، وبددتِ ظنوني السابقة في إستحالة أن أتذوق مثل هذه اللحظات... نعم، غداً سوف أقصُّ عليكِ كل شيء، وسوف تعرفين كل شيء، كل شيء.

- حسنًا، وأنا أقبل، وسوف تبدأ أنت...

- موافق.

- وداعاً!

- وداعاً!

إفترقنا بعد ذلك. وظللت أسير طوال الليل، ولم أستطع أن أحزم أمري كي أعود إلى البيت، فقد كنت محلقاً من السعادة... وإلى الغد.

الليلة الثانية

—هتفت ضاحكة وهي تشدُّ على يديَّ بقوة، كأنما تريد أن تأخذني معها إلى عالم آخر:

—ها نحن عشنا حتى موعد اليوم.

ثم استدركت بعد لحظة، وكأنها تود أن تفتح فصلاً جديدًا في حديثنا:

—أنا هنا منذ ساعتين، وآه لو تعلمين بما جرى لي طوال اليوم!

أجبتُ بشيء من الحيرة، لكنني لم أستطع منع نفسي من أن أكون فضولياً:

—أعرف، أعرف، ولكن فلندخل في الموضوع. أتعرف لماذا جئتُ اليوم؟ أنا لم أحضر كي نثرثر حول ترهات بلا معنى كما فعلنا أمس. بل علينا أن نسلك سلوكًا أكثر حكمة في المستقبل. لقد فكرتُ طويلًا في كل ما جرى ليلة أمس.

ثم نظرت إليَّ بتفكير عميق، وتابعت بصوتها الحاد، الذي بدا وكأنه يحمل في طياته شيء من التحدي:

—كيف؟ وبأي الأشياء يمكننا أن نصبح أكثر حكمة؟ أنا مستعد من جانبي، ولكن في الحقيقة، لم يحدث شيء أكثر حكمة في حياتي مما يحدث لي في هذه اللحظة.

ابتسمتُ، محاولاً أن أبدو أقل تردُّدًا:

—حقًا؟ إذاً، أولاً أرجوك لا تضغطي على يدي بكل هذه القوة، وثانيًا، أصارحك بأنني تأملت في شخصك طويلاً اليوم.

ثم سألتني بفضول، وهي تقفز من سؤال إلى آخر:

—حسناً، وما النتيجة التي انتهيتِ إليها؟

—النتيجة؟ لقد استنتجت أننا يجب أن نبدأ من جديد في كل شيء، لأنني وصلت اليوم إلى قناعة مفادها أنك ما زلت شخصًا مجهولًا بالنسبة لي، وأنني أمس سلكتُ مسلك الأطفال أو الصبية، والذنب في سلوكي هذا يقع على قلبي الطيب، لأنه يعبر عن نفسنا بصورة مثالية،

كما يحدث دائمًا عندما نطلق رأيًا عن أنفسنا. لذا، ولكي أصحح هذا الخطأ، قررتُ أن أتعرف على أدق تفاصيل حياتك. وبما أنه لا أحد يعرفها، فعليك أنت أن ترويها لي. فهيا، أخبرني، أي رجل أنت؟ هيا، ابدأ بحديثك على وجه السرعة.

صحتُ في خوف، وهو شعورٌ غمرني فجأة:

—حكايتي! أتريدين معرفة حكايتي؟ من الذي أخبرك أن لديَّ حكاية؟ أنا رجل بلا حكاية.

قاطعتني ضاحكة، كما لو أن الأمر لا يتعدى لعبة:

—كيف يمكن أن تعيش بلا حكاية؟

فأجبتُ وقد بدأت عيني تلمعان بمزيج من السخرية والقلق:

—لقد عشتُ بلا حكاية على الإطلاق... مجرد أنني عشت، أو كما يقال عندنا، عشت بنفسي فقط، أي بمفردي تمامًا، وحيدًا، وحيدًا بكل ما تعنيه الكلمة. أتدركين معنى كلمة "وحيد"؟

—كيف عشتَ بمفردك؟ ألم ترَ أحدًا أبداً؟

—نعم، لا، بل رأيتُ بشرًا بالطبع، ولكن رغم ذلك كنت وحيدًا.

—حسنًا، ولكن ألم تخاطب أحدًا أو تتحدث مع أحد؟

—بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا أحد.

بدأت تنظر إليَّ بتفكير عميق، وكأنها تسعى لالتقاط تفاصيل جديدة:

—هل يمكنك أن تخبرني، من أنت؟ بل، انتظر، سوف أخمن بنفسي، لديك جدة كما لديَّ، وهي ضريرة ولم تسمح لي بالخروج إلى أي مكان طوال حياتي. لذلك، فقدتُ تقريبًا القدرة على الكلام تمامًا. وعندما ارتكبتُ إحدى الحماقات الصبيانية منذ عامين، أدركت الجدة حينذاك أنها لن تستطيع منعي من الخروج، فنادتني، وقامت بربط ثوبي بثوبها بدبوس. وهكذا، ومنذ ذلك الوقت، جلسنا معًا على هذا الحال أيامًا بأكملها، تغزل هي الجوارب رغم أنها ضريرة، بينما أظلُّ بجانبها أحيك شيئًا ما أو أقرأ لها كتابًا بصوت مسموع. وصار الأمر أشبه بطقس غريب، ونحن مشدودتان معًا بدبوس منذ عامين.

نظرت إليها بدهشة، وكأنني لم أتمكن من فهم ما قالت، حتى خرجت مني هذه الكلمات في ذهول:

—يا رب السماوات!! يا للتعاسة! لا.. جدَّتي ليست من ذلك النوع.

ثم تتابع هي، بضحكة خفيفة، وكأنها تحاول أن تكتشف المزيد من تفاصيل حياتي:

—ما دامت جدتك ليست من ذلك النوع، فما الذي يُبقيك في البيت إذًا؟

- أنتِ تريدين معرفة من أنا؟ أليس كذلك؟

- نعم، بالطبع أريد.

- بالمعني الدقيق للكلمة؟

- نعم، بأدق معانيها.

- إذاً، اسمحي لي أن أعترف لكِ بأني أنتمي إلى ذلك النوع من الأشخاص...

إنفجرت الفتاة مقهقهةً من الضحك، وكأنها لم تضحك منذ عام مضى، وصاحت قائلة:

- نوع! نوع، أي نوع؟ الحديث معك هو الضحك عينه، انظر.. توجد أريكة هنا.. هيا بنا نجلس عليها، فلا أحد يمر من هنا، ولن يسمع أحد حديثنا، ولتبدأ في سرد حكايتك.. فإنني على يقين بأن لك تاريخاً، ولكنك تريد إخفاءه عني... أولاً، ماذا تعني بكلمة نوع؟

ضحكت بدوري عقب ضحكاتها الطفولية وقلت:

- نوع؟ النوع يعني الشخص غريب الأطوار، الإنسان المُضحك، الذي يتميز بذلك الطابع المتفرد. أتعرفين معنى الإنسان الحالم؟

- الحالم؟ بالطبع أعرف معناه، فأنا نفسي حالمة. وعندما أجلس طويلاً بالقرب من جدتي، تطوف برأسي كل ما تتخيله من أحلام، وما أن يبدأ الحلم حتى ينتهي. وقد حلمتُ مرة بأنني تزوجتُ أميراً صينيّاً، وكما ترى، ففي بعض الأحيان يصبح الحلم شيئاً جيداً..

وأضافت الفتاة بلهجة جادة:

- وربما لا.. وعلى أية حال فهذا أمر لا يعلمه إلا الله، خاصة لو أن هناك شيئاً آخر تنشغل في التفكير به.

- رائع! وبما أنك تزوجتِ بأمير من الصين، فسوف تستطيعين فهمي تماماً، ولكن اسمحي لي في البداية أن أسألك عن اسمك، الذي لا أعرفه حتى الآن.

- أخيراً! تذكرتَ أن تسأل الآن!

- يا ربي! لم يخطر ببالي أن أسألك قبلاً؛ لأني كنت في حالة من السعادة حتى دون أن أعرفه...

- اسمي "ناستنكا[4]" .

- "ناستنكا"! "ناستنكا" فقط؟

- فقط.. ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذي لا يشبع؟

- يكفيني بالطبع، بل على العكس، فهذا كثير، كثير جدّاً... "ناستنكا" الحنونة، أنتِ هي الفتاة التي صارت بالنسبة لي "ناستنكا" منذ اللحظة الأولى.

- ها أنا أصغي إليك.. ماذا بعد؟

---

[4]ناستنكا اسم التصغير أو التدليل لاسم ناستاسيا. - المترجم

- حسناً يا "ناستنكا"، اسمعي كيف سارت أحداث تلك الحكاية المضحكة.

جلستُ بالقرب منها، واتخذتُ هيئة الرجل الجاد المتحذلق، وبدأت في الحديث وكأني أقرأ شيئاً مكتوباً:

عزيزتي "ناستنكا"، يوجد في بطرسبورج العديد من الأركان والأحياء الغريبة التي ربما لا تعرفين عنها شيئاً، وتلك الأركان لا تطلُّ الشمس عليها مثلما تشعُّ على جميع سكان بطرسبورج، بل شمس أخرى جديدة وغريبة، وكأنما هي شمس صُنعت خصيصاً لتلك الأحياء، وتشرق عليها بأضواء فريدة مختلفة. وفي تلك الأحياء يا عزيزتي "ناستنكا"، تمضي الحياة وكأنها من نوع آخر تماماً، لا تشبه تلك الحياة التي تفور بالقرب منا، بل تبدو كأنها تدور في مملكة خرافية غير مرئية، ليس في زماننا ولا في دنيانا الصارمة الحالية. فهي عبارة عن مزيج من الخيال البحت، والحياة النموذجية الملتهبة، ولكنها؛ للأسف يا "ناستنكا"؛ في الوقت نفسه حياة مضجرة، ركيكة، ورتيبة، إلى الدرجة التي يمكن وصفها بأنها مبتذلة على نحو لا يُصدَّق.

- أووف، يا ربي! يا رب السماوات! ما هذه المقدمة؟ وما الذي سوف أسمعه بعد ذلك؟

- ما سوف تسمعينه يا "ناستنكا"، يبدو لي أني لن أتعب أبداً من تكراري لاسم "ناستنكا"، سوف تسمعين أن تلك الأركان يعيش بها بشر يتسمون بالغرابة، إنهم الحالمون، ولو أردنا تحديد ماهية الحالم على وجه الدقة، فهو ليس بإنسان، بل هو مخلوق من مخلوقات الكون، محايد النوع، يفضل أن يسكن الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها، وكأنه يلوذ بها حتى من ضوء النهار. وعندما يأوي إلى بيته، يلتصق بجدرانه مثل الحلزون في قوقعته، أو على أقل تقدير يشبه ذلك الحيوان الغريب، الذي يُعدُّ حيواناً وبيتاً في الوقت نفسه، وهو ما يطلقون عليه اسم السلحفاة. فما رأيك في السبب الذي يجعله يحب إلى تلك الدرجة، بيته الملوَّن دائمًا باللون الأخضر، وجدرانه الصماء المُضجرة، والمُشبعة بدخان التبغ بصورة غير لائقة؟ لماذا يتملك الحرج ذلك السيد المُضحك، وتكسو وجهه أمارات الارتباك الشديد، عندما يزوره أحد من معارفه النادرين "وينتهي الأمر بأن ينفضَّ من حوله كل المعارف" وكأنما ارتكب لتوِّه جُرمًا بين جدران بيته الأربعة، أو

كأنه زيَّف أوراقاً نقدية، أو نظم أبياتاً من الشعر وبعث بها في رسالة دون توقيع إلى إحدى المجلات، مدعياً في رسالته أن صديقه الشاعر الحقيقي ناظم الأبيات قد مات، وأنه يرى واجبه المقدس في نشر أشعاره؟ أخبريني يا عزيزتي "ناستنكا"، ما السبب في أن يفشل الحديث بين جليسين؟ لماذا لا ترفرف ضحكة أو كلمة ملتهبة، محلقةً من فم ذلك الصديق المحير الذي يظهر فجأة، والذي نراه في ظروف أخرى يهوى الضحك كثيراً، ويحب الكلمة الملتهبة والحديث حول الجنس اللطيف، وغيرها من المواضيع المرحة؟ وأخيراً، لماذا يضطرب هذا الصديق، حديث العهد بمعرفته في الغالب، لدى الزيارة الأولى له؟ حيث إن الزيارة الثانية لن تحدث في كل الأحوال، ولن يظهر ذلك الصديق مرة أخرى، ويشعر الصديق بالارتباك وتتجمَّد عظامه رغم فطنته "إن كان يملك شيئاً منها"، عندما يرى وجه مضيفه وقد تبدَّل، وصار بدوره مرتبكاً ومشوشاً تماماً، بعد أن بذل جهداً ضخماً لكنه عقيم، في أن يقيم حواراً، يستعرض فيه جوانب معرفته الدنيوية، والحديث بطلاقة حول الجنس اللطيف، فربما يمثل إظهار هذا الخضوع إرضاءً لذلك الرجل المسكين الذي حلَّ ضيفاً بالمكان الخطأ؟

وفي نهاية الأمر، لماذا يختطف الضيف قبعته فجأة، ويرحل مسرعاً بعد أن يختلق مهمة عاجلة لا وجود لها، ويحرِّر يده من قبضة يد مضيفه الذي يحاول إظهار أسفه وإصلاح ما أفسده؟ لماذا ينفجر ذلك الصديق من الضحك فور خروجه من الباب، ويعاهد نفسه ألا يعاود زيارة هذا المضيف غريب الأطوار مرة ثانية وإلى الأبد، على الرغم من أن هذا المضيف غريب الأطوار رجل طيب القلب حسن الخلق، ولكنه في الوقت نفسه لا يمكنه كبح جماح خياله في نزوة صغيرة وهي: أن يقارن ولو عبر أبعد الأشكال، التعبيرات التي ارتسمت على وجه ذلك الصديق طوال اللقاء، بتعبيرات وجه تلك القطة المسكينة، التي سحقها الأطفال، وأنزلوا بها كل صنوف العذاب والتخويف، بعد أن أسروها غدراً وعفروها بالتراب، ثم استطاعت أخيراً الاختباء منهم تحت أحد المقاعد، وظلت ساعة كاملة في عتمة الظلام تقوم بنفش شعرها، وتزفر الهواء من منخريها بصوت عالٍ، تلعق قائمتيها وهي تحاول إزالة الإهانات التي لحقت بها، وبعد ذلك تظل طويلاً تنظر بعداء نحو الطبيعة والحياة، وحتى نحو فضلات طعام السادة، التي تأتيها بها الخادمة الحنون التي تعمل في المنزل؟

كانت "ناستنكا" تستمع إليَّ طوال الوقت وهي فاغرة فاها، ومحدق نحوي في دهشة، وقاطعتني أخيراً قائلة:

- انتظر.. انتظر.. أنا لا أفهم على الإطلاق كيف جرى كل هذا؟ ولماذا تلقي عليَّ أنا تحديداً كل هذه الأسئلة الهزلية؟ مع العلم أنني أدرك أنك البطل في كل تلك المغامرات من الألف إلى الياء، أليس كذلك؟

أجبتها بلهجة جادة رصينة:

- صحيح، ودون أدنى شك.

ردَّت "ناستنكا":

- بما أنه "دون أدنى شك"، فعليك مواصلة حديثك، حيث إنني أتوق بشدة لمعرفة نهاية تلك المغامرات.

- إذاً أنتِ يا "ناستنكا" تريدين معرفة ما يشغل بطلنا، أو من الأفضل القول: ما يشغلني، حيث إني بطل ذلك العمل، ومعرفة ما يفعله بين جدران ذلك الركن، شخصي المتواضع لأبعد الحدود، وما الذي يجعلني

أضطرب بشدة، وأظل مرتبكاً طوال اليوم؛ نتيجة لزيارة مفاجئة من أحد الرفاق؟ تريدين معرفة ما الذي يجعلني أرتجف وأحمرُّ حين يُفتح باب حجرتي؟ وما السبب الذي يجعلني عاجزاً عن استقبال الضيف، حتى أكاد أموت خجلاً تحت وطأة طقوس الضيافة.

ردَّت "ناستنكا":

- نعم، نعم، فهذا هو جوهر الحكاية.. وأنت تحكي بصورة رائعة ومنمقة، ولكن.. ألا تستطيع الحديث على نحو أبسط غير منمق؟ لأنك تتكلم وكأنك تقرأ من كتاب تماماً.

أجبتُ بصوت رصين متمالكاً نفسي بالكاد كي لا أضحك:

- "ناستنكا".. عزيزتي "ناستنكا" الرقيقة، أعلم أني أجيد السرد، ولكن أرجو أن تعذريني؛ لأني لا أستطيع الحديث بطريقة أخرى، أو بعبارات مبسطة. فأنا الآن يا عزيزتي "ناستنكا" أشبه بروح الملك سليمان، التي ظلت لألف عام حبيسة في القمقم تحت سبعة أختام، حتى تحررت أخيراً بعد فضِّ الأختام السبعة. أما الآن يا عزيزتي "ناستنكا"، فقد إلتقينا بعد فراق طويل؛ ذلك لأني أعرفك يا "ناستنكا" منذ زمن بعيد،

ولأني ظللت أبحث عن أحد مجهول منذ سنوات عديدة، وكانت هذه علامة أنني كنت أبحث عنكِ أنتِ تحديداً، وقد كُتب علينا أن نلتقي في هذه اللحظة، التي جعلت آلاف الشلالات تنبلج في رأسي، وعليَّ أن أدع نهر الكلمات يتدفق منها، مثل السيل؛ حتى لا أختنق.. لذلك أرجوكِ يا "ناستنكا" ألا تقاطعيني، وأن تسمعيني بخضوع وطاعة، وإلا فسوف ألتزم الصمت.

- لا، لا، إياك! لن أقاطعك أبداً بعد ذلك! تكلم ولن أنطق بكلمة واحدة.

- حسناً، سوف أواصل كلامي يا عزيزتي ناستنكا: تتخلل يومي ساعة بعينها أحبها بصورة خاصة، وهي تلك الساعة التي تنتهي فيها كل الأعمال والأشغال والالتزامات، ويهرول فيها الجميع إلى منازلهم لتناول طعام الغداء، أو للاستلقاء والراحة. وأثناء طريقهم، يبتكرون شتى الموضوعات المبهجة، التي تتعلق بالسهرات والأمسيات الليلية، وغيرها مما يتطلبه قضاء وقت الفراغ المتبقي لديهم من اليوم. وفي هذه الساعة فإن بطلنا، واسمحي لي يا "ناستنكا" أن أستخدم ضمير الغائب؛

لأنني أشعر بالخجل الشديد عند الحديث بضمير المتكلم، يقوم بالسير قدماً على الطريق بعد انتهاء عمله، مثله في ذلك مثل الآخرين. لكن شعواً غريباً بالرضى والمتعة يأخذ في الزحف على وجهه الممتقع، الذي بدا متجعداً بعض الشيء. ويتطلع بنظرة تخلو من اللامبالاة نحو الشمس الغاربة، وهي تخبو ببطء في سماء بطرسبورج الباردة، وفي حقيقة الأمر فهو لا يتطلع، بل يتأمل بلا وعي، كأنه مهموم ومستغرق في الوقت نفسه بشيء آخر أكثر جاذبية، حيث إن بوسعه تخصيص الوقت لكل ما يحيط به والالتفات إليه، وذلك عبر القيام بصورة عفوية تقريباً، بإلقاء النظرات الخاطفة. وصار يشعر بالسرور؛ لأنه انتهى من العمل المزعج، وتحرر منه حتى الغد، وتملكته السعادة مثل تلميذ تحرر من جلسته فوق أريكة الفصل المدرسي، فانطلق للهو والمرح. وعندما تنظرين إليه من الخارج يا "ناستنكا"، فسوف تدركين في الحال تأثير نشوة الفرح التي سرت في جسده، وعبر أعصابه الواهنة وخياله المتألم المتأجج، فها هو مستغرق في تأملاته. أتظنينه يفكر في غداء اليوم؟ أم إنه سارح في الأمسية المقبلة؟ تُرى ما الذي يحدق نحوه على هذا النحو؟ أينظر إلى ذلك السيد صاحب الهيئة الوقورة، الذي ينحني

بصورة متكلفة مفخمة لتلك السيدة العابرة بجانبه في عربتها الفاخرة بخيولها الرشيقة؟ لا يا عزيزتي "ناستنكا"، فهو في هذه اللحظة لا يلتفت نحو كل هذه الترهات؛ لأنه في هذه اللحظة قد صار ثريّاً بحياته الداخلية الخاصة، وأصبح فجأة ثريّاً حقّاً، ولم يتلألأ شعاع الوداع للشمس الخابية أمام ناظريه عبثاً، بل بعث الدفء إلى قلبه، ليحلّق منه سرب كامل من الانطباعات. وأمسى الآن يلاحظ بالكاد ذلك الطريق، الذي كان يُدهشه سابقاً بأصغر التفاصيل التي تجري عليه. والآن، فإن "ربة الخيال" "لو أنكِ قرأتِ "جوكوفسكي[5]" يا عزيزتي "ناستنكا""، قد غزلت بيدها السحرية نسيجها الذهبي، ومضت تنثر أمامه الزخارف الفاتنة غير المسبوقة للحياة، ومن يدري، فربما أنها استطاعت بأناملها السحرية، رفعه إلى السماء البلورية السابعة، التي يمتد منها ذلك الرصيف البديع من المرمر، فيخطو عليه عائداً إلى بيته.

[5]جوكوفسكي: فاسيلي أندريفيتش جوكوفسكي (1702-1783) شاعر روسي، وهو أحد مؤسسي الرومانسية في الشعر الروسي، كتب العديد من الأشعار الرومانسية والأغاني والقصص والأعمال الملحمية. كما اشتهر بترجمته للشعر والنثر الأدبي. - المترجم

ولو أنكِ حاولتِ أن تستوقفيه الآن، وسألتِه فجأة عن المكان الذي يقف به، وعن الشوارع التي قطعها، فإنه على الأرجح لن يتذكر شيئاً على الإطلاق، لا عن الطرق التي سار بها، ولا عن المكان الذي يقف به، ولاحمرَّ خجلاً من شدة الارتباك، أو اختلق شيئاً ما لحفظ ماء وجهه. ولهذا السبب إرتجف بدنه بشدة، وكاد أن يصرخ فزعاً متلفتاً حوله، عندما استوقفَتْه بكل الاحترام عند منتصف الرصيف، سيدة وقور عجوز؛ كي تسأله عن الطريق الذي ضلت الوصول إليه. فقطب حاجبيه عابساً، وسار مبتعداً دون أن يلاحظ ابتسامة كل من يمر به عندما ينظر إليه، ويرى ملامح وجهه، وتلك الفتاة الصغيرة التي تُفسح له الطريق على استحياء، ثم تنفجر ضاحكة وهي تحدق بملء عينيها إلى الابتسامة العريضة التأملية المرتسمة على وجهه، وإلى حركات يديه، إنه ذلك الخيال عينه هو الذي يلتقط في رحلته الطائشة تلك السيدة العجوز، والمارة الفضوليين، والفتاة الضاحكة، وأولئك الرجال الذين يقضون سهراتهم على متن قواربهم، التي اكتظت بها ضفة نهر فونتانكا "افتراضاً بأن بطلنا يمر به في ذلك الوقت"، ثم يدفع خياله الجميع وكل شيء آخر، حتى ينحشروا داخل نسيجه بصورة هزلية،

مثلهم في ذلك مثل الذباب المتساقط في خيوط العنكبوت. وبعد ذلك يعود غريب الأطوار بهذا المكسب الجديد إلى ملاذه السعيد حيث يجلس إلى طاولة الطعام، ويتناول الغداء الذي انقضى على موعده زمن طويل، ولا يثوب إلى رشده إلا حينما تدخل "ماترينا" الشاردة دائمًا والحزينة للأبد، والتي تقوم على خدمته، وترفع كل شيء من على الطاولة، وتأتيه بالغليون. وها هو قد أفاق، وتذكر في دهشة أنه قد انتهى من تناول طعامه حتى الشبع، بعد أن ألمَّ به الجوع الشديد.

خيَّم الظلام على أركان حجرته، وشعر بالحزن والخواء يقبضان على روحه، وقد تهاوت مملكة الأحلام بأكملها، وتلاشت من حوله، بلا أثر ولا ضجيج ولا صخب، مثل ومضة سرعان ما تخبو، أو كأنها حلم تراءى له في المنام، وصار لا يتذكر ذلك الحلم. لكنه شعر بإحساس مظلم، يبعث بعض الألم والاضطراب إلى صدره، وبرغبة جديدة تدغدغ خياله وتثيره، وتستدعي إليه سرباً كاملاً من الأشباح الجديدة بصورة غير ملحوظة. وأطبق على الحجرة الصغيرة سكون تام، وأخذ الشعور بالوحدة والكسل يداعب خياله، الذي أخذ يتَّقد سخونةً شيئاً فشيئاً، ثم يغلي قليلاً، مثلما يغلي الماء في إبريق القهوة، التي تعدُّها العجوز

"ماترينا" بهدوء في المطبخ بالقرب منه. وها هو الخيال يبدأ في الوميض بنبضات خفيفة، وها هو الكتاب يتناوله صاحبي الحالم بلا هدف، ثم يسقط من يده دون وعي منه، قبل أن يصل بعينيه حتى إلى الصفحة الثالثة. وصار خياله مشحوذاً ومستثاراً من جديد. وانبلج أمامه فجأة عالم جديد مرة أخرى، وحياة مدهشة تتلألأ أمام ناظريه في آفاق مشرقة. وحلم جديد يمثل السعادة الجديدة. وجرعة أخرى لسمٍّ رقيق حلو المذاق! فيا للروعة! وما حاجته إلى حياتنا في أرض الواقع؟ ففي نظرته الظافرة، أعيش أنا وأنت يا "ناستنكا" حياة شديدة الخمول، راكدة، تمضي بوتيرة بطيئة، ونحن جميعاً في نظرته ساخطون على مصائرنا، نتحسر على حياتنا، وهذا في الحقيقة أمر صحيح، وانظري بنفسك، فمن النظرة الأولى، سار اللقاء بيننا بصورة باردة متجهمة، ومتوترة تماماً. ويفكر صاحبي الحالم: "يا للبؤساء"! ولكن، لا عجب فيما يظنه. وانظري إلى تلك الأشباح الخرافية، وهي تتشكل أمامه على هذا النحو المدهش الغريب اللامحدود، في مثل هذه اللوحة السحرية الحية المُلهمة، التي تَصَدَّرها بالطبع صاحبنا الحالم نفسه بشخصه الثمين. انظري إلى المغامرات المتنوعة، وإلى السرب اللانهائي من

الأحلام الفوارة. ولعلك تسألين: ما الذي يفكر به؟ ولكن، ما جدوى هذا السؤال؟ إنه يفكر حول كل شيء، حول دور الشاعر الذي لم يعترف به أحد في البداية، ثم وصل إلى أعتاب المجد، حول الصداقة مع "هوفمان[6]" ، وليلة سان بارتيليمي[7]، و"ديانا فيرنون"، والدور البطولي الذي قام به "إيفان فاسيليفيتش[8]" عند الاستيلاء على قازان،

---

[6]إرنست هوفمان (1776-1822): هو الكاتب الرومانسي الألماني والرسام والمؤلف الموسيقي، وضع العديد من المؤلفات الموسيقية والأوبرات الغنائية والباليه. - المترجم

[7]ليلة سان بارتيليمي: ليلة وقوع مذبحة جرت في فرنسا عام 1572، قُتل خلالها عدد يتراوح ما بين خمسة آلاف إلى ثلاثين ألف بروتستانتي فرنسي بيد المتعصبين الكاثوليك، وذلك بأوامر من الملك شارل التاسع؛ خوفاً من وانتشار البروتستانتية. - المترجم

[8]إيفان فاسيليفيتش (1530-1583): هو القيصر الروسي الشهير بلقب إيفان الرهيب، والذي نجح في الاستيلاء على قازان الحصينة في عام 1552 بعد حصارها والمعارك الشرسة التي خاضها. وكانت إمارة قازان واستراخان وغيرها من إمارات القرم تمثل خطرًا على الدولة الروسية. - المترجم

و"كلارا موفبراي"، و"إيفي دنيس[9]" ، وكاتدرائية الأساقفة و"جوس[10]" يقف أمامها، وتمرد الموتى في "روبير الشيطان[11]" "هل تتذكرين موسيقى ذلك العمل، التي بدت وكأن رائحة المقابر تفوح منها؟"،

[9]كلارا موفبراي، إيفي دينيس، مينا، بريندا، هي شخصيات روائية للكاتب والتر سكوت. - المترجم

[10]يان جوس (1369-1415): هو الداعية والمفكر والمصلح الفكري التشيكي الشهير، والبطل القومي لدى الشعب التشيكي، عمل كاهناً وعميدًا لجامعة براغ، وتم إعدامه حرقاً مع مؤلفاته في يوليو لعام 1415، وذلك بعد أن غدر به الإمبراطور سيجسموند، وبعهد الأمان الذي منحه له واتهامه بالزندقة، مما تسبب في اندلاع موجة من الحروب سميت بحروب جوس. - المترجم

[11]روبير الشيطان: اسم الأوبرا المكونة من خمسة فصول، والتي وضعها الموسيقي الفرنسي (جاكومو ميربير). وكان العرض الأول لها في باريس عام 1831. - المترجم

و"مينا" و"بريندا"، ومعركة بيريزينا[12]، وصالون قراءة الأشعار عند الكونتيسة "ف. دي"، و"دانتون"، و"كليوباترا" وعاشقها، والبيت الصغير في كولومنا[13]. إنه يفكر في كل هذا في ركنه الصغير، حيث يجلس بجواره في أمسية شتوية مخلوق رقيق يصغي إليه فاغراً فاه، يحملق بعينيه كما تفعلين الآن يا ملاكي الصغير.. ولكن لا يا "ناستنكا"، فما شأنه؟ ما شأن هذا الإنسان الشهواني الخامل بهذه الحياة التي نجنح إليها معاً؟ إنه يراها حياة سقيمة بائسة، ولا يتوقع أن تحين يوماً ساعة حزينة، سوف يرغب فيها أن يمنح سنوات حياته الخيالية بأكملها، مقابل يوم واحد من تلك الحياة البائسة، وهو لن يمنحها مقابل الفرح أو السعادة، ولن يرغب حتى بالاختيار في تلك اللحظة من الأسى والندم والحزن. كما أنه طالما لم تحن بعدُ تلك الساعة الوخيمة، فهو لا يرغب

[12]معركة بيريزينا: وقعت على نهر بيريزينا بالقرب من مدينة بوريسوف في بيلاروسيا، بين جيش نابليون والقوات الروسية التي نجحت في دحر قوات نابليون، وجعلتها تتراجع حتى مدينة فيلنوس في ليتوانيا. - المترجم

[13]البيت الصغير في كولومنا: قصيدة هزلية للشاعر الروسي الشهير ألكسندر بوشكين، كتبها عام 1830. - المترجم.

في شيء، حيث إنه يسمو فوق كل الرغبات، ولأنه صار مشبعا بكل شيء، فهو الذي يرسم مسار حياته، ويخلق خطوطها في كل لحظة، طبقاً لإرادته الجديدة. فكم من السهل والبساطة خلق ذلك العالم الخرافي الخيالي! وكأن كل هذا لم يكن وهماً! وفي الحقيقة، فإني مستعد للإيمان بلحظة أخرى، وبأن كل هذه الحياة ليست مجرد إثارة للمشاعر، وليست سراباً ولا وهماً، ولا خداع خيال، بل هي واقع صريح، ووجود حقيقي. أخبريني يا "ناستنكا"، لماذا تتحير الروح في مثل هذه اللحظات؟ وما هي القوى السحرية والإرادة العفوية التي تجعل النبض يتسارع، والدمع ينساب من عيني الحالم، حتى تحترق وجنتاه الشاحبتان، ويتملك وجدانه شعور لا يقاوم بالسعادة؟ كيف تمرُّ ليالٍ بأسرها من السهاد والأرق مرور لحظة واحدة خاطفة، وهو في نشوة وسعادة لا ينضبان؟ ولماذا عندما يتألق الفجر بأنواره الوردية عبر النوافذ، وتشرق الشمس بأضواء خرافية مترددة، فتنير الحجرة المعتمة، مثلما تفعل لدينا في بطرسبورج، يرتمي صاحبنا الحالم فوق فراشه، مكدوداً منهكاً تماماً، ويغفو في سبات من فرط السعادة التي تفيض بها روحه العليلة المزعزعة، والألم المُسكِر الناعم الذي يخترق

قلبه؟ نعم يا "ناستنكا"، عندما يخدع المرء نفسه، يعتقد بصورة لا إرادية أن العاطفة الحقيقية الصادقة تعصف بروحه، ويؤمن بصورة لا إرادية بأن هناك شيئاً حيّاً ماديّاً وملموساً في خيالاته غير المادية! فيا له من خداع، وعلى سبيل المثال، عندما يغزو الحب صدره بكل السعادة التي لا تنضب، وبكل آلامه المضنية الناعمة، ما عليكِ سوى النظر إليه كي تتيقني! فعندما تنظرين إليه عزيزتي "ناستنكا"، هل تصدقين حقّاً أنه في الواقع لم يعرف تلك التي أحبها في أحلام اليقظة المحمومة؟ أيعقل أنه لم يشاهدها إلا بين تلك الأطياف الفاتنة، وأن تلك العاطفة جاشت بداخله في الحلم فقط؟ أيعقل أنهما لم يعِيشا يداً بيد طوال سنوات مديدة من عمرهما، بمفردهما معاً، بعد أن تركا العالم بأسره جانباً، وبعد أن توحَّد عالمهما، وانصهرت حياتهما معاً؟ أيعقل أنها لم ترقد فوق صدره تنتحب في اشتياق لساعة الفراق، دون أن تنتبه إلى العاصفة المدوية تحت السماء الكالحة، ولا تصغي للرياح التي تنتزع الدمع منها، وتحمله من فوق أهدابها السوداء؟ أيعقل أن كل هذا كان حلماً؟ ألم يتنزَّها معاً كثيراً، في هذا الروض الموحش المهجور، بدروبه المنعزلة القاتمة، المكسوة بالأعشاب الشائكة، وهما يأملان،

ويشتاقان، ويحبان، ويتحابان طويلاً، طويلاً بكل الحنان والرقة! وذلك البيت القاتم، منزل الأسلاف، حيث عاشت به سنوات طويلة في وحدة وحزن مع زوجها العجوز المتجهم، حاد الطباع والصامت دائماً، والذي كان يخيفهما، وهما الخجولان مثل الأطفال، فيتكتمان حبهما في رهبة وحزن. فيا للألم الذي تعرضا له، ويا للخوف الذي تملكهما. وكم كان حبهما بريئاً نقيّاً، وكم كان الناس "وهذا أمر طبيعي يا عزيزتي "ناستنكا"" أشراراً! ويا ربي! أليست هي التي إلتقى بها بعد ذلك بعيداً عن شواطئ وطنها، تحت سماء غريبة، في منتصف يوم حار، في المدينة الخالدة المبهرة، تحت الأضواء الساطعة للحفل الراقص وصخب الموسيقى في القصر "لا بد أن تكون في القصر"، غارقاً في بحر من الأنوار المتأججة مثل النار، في تلك الشرفة المكللة بالورود والرياحين، حيث خلعت قناعها في لهفة عندما تعرفت إليه، وهمست له: "ها أنا أصبحت حرة". وارتمت بين ذراعيه وهي ترتجف، فصرخ من الفرحة، وتعانقا بحرارة، وفي لمح البصر نسيا الأحزان والفراق وكل الآلام، والبيت القاتم والعجوز المتجهم، والروض الموحش في الوطن البعيد، والأريكة التي كانا يجلسان عليها، حيث انتزعت نفسها من بين ذراعيه المتشنجتين

يأساً وألماً، وذلك بعد القبلة الحارة الأخيرة بينهما.. أظنك توافقينني يا "ناستنكا" أنك سوف تنتفضين، وتضطربين، ويحمرّ وجهك، مثل تلميذ دسَّ في جيبه للتوِّ تفاحة سرقها من البستان المجاور، وذلك عندما يدخل دون دعوة شاب من رفاقك، ذو بنية قوية، فارع الطول، مرح وبشوش الوجه، ويدفع الباب صارخاً وكأن شيئاً لم يحدث: "ها أنا يا عزيزي، وصلت للتو من بافلوفسك"! يا رب السماوات! لقد مات الكونت المسنُّ، وحلت السعادة التي لا توصف، وها هم الناس يتوافدون من بافلوفلسك.

—صمتُّ منفعلاً، بعد أن انتهيت من هتافاتي الحماسية. وأتذكر أن رغبة مجنونة كانت تدفعني إلى الضحك بأعلى صوتي، وقد شعرت حينذاك بشيطان عدواني يتحرك في أعماقي، وبدأ يقبض على حلقي، ويهز ذقني فترتعش، وأخذت عيناي تبتلان أكثر فأكثر... بعد أن ظلت "ناستنكا" تستمع إليَّ فاغرةً فاها، ومحدقة بنظراتها اللامعة الذكية، توقعت ألا تتمالك نفسها وتنفجر مقهقهة بكل ضحكاتها الطفولية المرحة، فندمت على إطالتي في الكلام والذهاب به بعيداً، والبوح عبثًا بما كان يفور في قلبي، والحديث عنه وكأنني أقرأه مكتوباً، كما لو أنني

أعددتُ الحكم على نفسي منذ فترة طويلة، ولم أتمالك نفسي الآن عن تلاوة ذلك الحكم والاعتراف به، دون التوقع بأن أحداً سوف يفهمني، ولكن ما أثار دهشتي أنها إلتزمت الصمت، وبعد فترة وجيزة شدَّت على يدي برفق، وسألتني خجلي بلهجة تعاطف:

—هل حقّاً عشت هذه الحياة طوال عمرك؟

أجبتها قائلًا:

—طوال العمر يا "ناستنكا"، طوال العمر.. ويبدو أنني سوف أعيشها حتى نهايتي.

قالت بانفعال:

—لا، هذا لا يجوز، هذا لن يحدث، وإلا فسوف أقضي عمري كله بجوار جدتي. ألا تعلم أن الحياة بهذه الطريقة لا تثمر سوى الضرر البالغ؟

صحتُ وأنا لا أتمالك عواطفي:

—أعرف يا "ناستنكا"، أعرف، وأدرك الآن أكثر من أي وقت مضى أنني أضعت جميع أفضل سنوات عمري هباءً، أدرك هذا جيداً، وأشعر بالألم لهذا الإدراك، ولأن الله نفسه قد أرسلك إليَّ يا ملاكي الطيب؛ كي تخبريني بكل هذا وتبرهني عليه. وعندما أجلس بجوارِكِ الآن وأتحدث معكِ، يتملكني شعور رهيب بالخوف من المستقبل؛ لأن المستقبل لا يحمل لي سوى الوحدة مرة أخرى، والحياة العفنة التي لا حاجة بي إليها مرة أخرى. ولكن، ما دمتُ بالقرب منكِ على أرض الواقع، والسعادة تغمرني، فما حاجتي إلى أن أحلم؟ ليحفظكِ الله يا فتاتي الرقيقة؛ لأنك لم تصدِّيني منذ اللحظة الأولى، ولأنك أتحتِ لي فرصة الصياح بأنني على الأقل عشت في حياتي أمسيتين كاملتين!

صاحت "ناستنكا" والدموع تترقرق في عينيها:

—لا، لا يا إلهي، لن يحدث هذا مجدداً، ولن نفترق على هذا النحو! لماذا تقول أمسيتين؟

- آه يا "ناستنكا" العزيزة، ليتكِ تدرين كم جعلتني أتصالح مع نفسي ولفترة طويلة مقبلة. أتعلمين أنني من الآن فصاعداً لن أرى نفسي بتلك

الدرجة من السوء كما فكرتُ سابقاً في بعض الأوقات؟ أتعرفين أنني ربما لن أشعر بالأسى بعد ذلك؛ لإرتكابي تلك الجريمة والخطيئة في حياتي، حيث إن حياتي على ذلك النحو تمثل جرماً وخطيئةً؟ وأرجوكِ ألا تظني أنني أبالغ في كلامي، لا تحسبي ذلك يا "ناستنكا"؛ لأنني أحياناً أعيش لحظات من الحزن والأسى، وأي حزن.. ويبدأ يلوح بذهني في تلك اللحظات أنني لن أصبح قادراً أبداً على البدء في عيش الحياة الحقيقية، ولأنه بدا لي سابقاً أنني فقدت كل لباقة السلوك، والحس الرفيع للواقع الحاضر، حتى صرت أخيراً ألعن نفسي؛ لأنني بعد الأمسيات الخيالية، تجد لحظات الصحوة طريقها إلى نفسي، فتجسد لي لحظات مرعبة! تلك اللحظات التي يشاهد المرء فيها، حشود البشر تهدر حوله وتدور في دوامة الحياة، ويسمع ويرى حياة الناس الذين يعيشون على أرض الواقع، ويرى الحياة بالنسبة لهم ليست بالطلب أو التفصيل، لا تحلّق مسرعة مثل الحلم والرؤيا، وأن الحياة تتجدد للأبد، وتظل فتية للأبد، لا تمر بها ساعة واحدة شبيهة بالأخرى. في حين أن الخيال المخيف الرتيب والحزين لدرجة الابتذال، ما هو إلا عبد للأطياف والأفكار، إنه عبد الغيمة الأولى التي تحجب نور الشمس فجأة، وتستطيع أن تبعث

الأسى في قلب بطرسبورج، ذلك القلب الذي يعتز بشمسه، فيا للخيال الذي يجعل القلب يفيض بالأسى! ويشعر بأن ذلك الخيال قد أصابه الإنهاك أخيراً، وخارت قواه في دوامة التوتر الأبدي، وينضب الخيال الذي لا ينضب؛ لأن المرء كلما كبر يتخلى عن مُثله العليا السابقة التي تتفتت وتتناثر غباراً وحطاماً، ولو لم تكن هناك حياة أخرى، فينبغي بناؤها من ذلك الحطام. وأثناء ذلك، تصبو الروح نحو شيء آخر تتوق إليه! ودون جدوى يفتش الحالم في أحلامه القديمة، كأنه يبحث في الرماد عن شرارة، ينفخ عليها فتشعل ناراً تعيد الدفء إلى قلبه البارد، وتبعث فيه من جديد كل المشاعر السابقة الحنونة التي تداعب الروح، وتدفع الدم يغلي في العروق، وتنتزع الدمع من العيون، وتخدعه على هذا النحو المزين البراق! أتعلمين يا "ناستنكا" الحد الذي وصلت إليه؟ لقد كنت مضطراً للاحتفال بالذكرى السنوية لمشاعري، الذكرى السنوية لمشاعري السابقة المفعمة بالجمال، والتي لم توجد أبداً في الواقع، ولأن الاحتفال بتلك الذكرى يعني الفوز على كل الأحلام البلهاء العقيمة، وأفعل هذا كي لا تُبعث هذه الأحلام ثانية؛ لأن الأحلام يمكنها أن تُبعث وتحيا من جديد، أليس كذلك؟ أتعرفين أنني أحب الآن تذكُّر

تلك الأماكن التي كنت سعيداً فيها يوماً ما بطريقتي الخاصة؟ وأن أتردد عليها في أوقات محددة، فأنا أحب بناء حاضر يتواءم مع ماضٍ لن يرجع أبداً، وكثيراً ما أهيم على وجهي مثل الظل، بلا حاجة ولا هدف، وأتسكع حزيناً مكتئباً في شوارع بطرسبورج وأزقَّتها الجانبية. فيا لها من ذكريات! أتذكر، على سبيل المثال، أنني منذ عام مضى، هنا، في هذا الوقت تحديداً، وفي هذه اللحظة عينها، تسكَّعت فوق ذلك الرصيف، وحيداً مكتئباً مثلما أفعل الآن، وأتذكر أن الأحلام في ذلك الوقت كانت أحلاماً مريرةً أيضاً، وعلى الرغم من أن السابق لم يكن أفضل، إلا أنني كنت أشعر بالحياة أكثر هدوءاً ويسراً، ولم تكن تراودني تلك الأفكار السوداء كما تتجسَّد أمامي الآن، ولم أشعر بندم الضمير، الندم القاتم الكئيب الذي لا يدع لي سبيلاً للراحة ليل نهار، وأسأل نفسي: أين ذهبت أحلامك؟ فأهز رأسي قائلاً: كم تحلّق السنين مسرعةً! وأعود فأسأل نفسي ثانية: ما الذي فعلته بسنوات عمرك؟ وأين قبرتَ أفضل أيامك؟ هل عشت حياة حقّاً؟ انظر إلى العالم حولك، وتطلعْ إليه، فكم أصبح بارداً. سوف تمرُّ سنوات أخرى، تتبعها العزلة القاتمة، والشيخوخة المرتعشة على عكازها، ليأتي بعدها الضجر واليأس.

وسوف يزحف الشحوب إلى عالمك الخيالي، وتموت أحلامك ويصيبها الذبول، وتتهاوى مثل أوراق الشجر الصفراء... آه يا "ناستنكا"! ما أتعس أن يظل المرء وحيداً، وحيداً تماماً، حتى إنه لم يحظَ بما يأسف عليه، فليس لديه ما يتحسَّر عليه على الإطلاق؛ لأن كل ما فقده كان عَدماً، وكل ما ضاع منه هو مجرد صفر غبي، ولم يكن يملك سوى الأحلام فقط!

قالت "ناستنكا" وهي تمسح دمعة انسلَّت من عينها:

- أرجوك لا تثر تعاطفي أكثر من ذلك.. الآن وبلا شك، سوف نصبح اثنين، والآن لن نفترق أبداً مهما جرى لي. ولتعلم أنني فتاة بسيطة، لم أنل سوى القليل من التعليم، رغم أن جدتي استقدمت لي معلماً خاصّاً، ومع ذلك فإنني أفهمك جيداً؛ لأن كل ما حكيته الآن عشتُه أنا بنفسي بالفعل، وذلك عندما ربطتني جدتي إلى ثوبها بدبوس. وبالطبع ليس في وسعي الحكي بتلك الطريقة الجيدة مثلما تفعل؛ لأنني لم أتعلم مثلك "أضافت عبارتها الأخيرة في خجل؛ لأنها شعرت بنوع من التقدير نحو كلماتي المثيرة للعطف، وأسلوبي الرفيع في السرد"، ولكنني في غاية

السعادة؛ لأنك كشفت لي تماماً كل ما في نفسك. وأشعر الآن أنني أعرفك، بل أعرفك كل المعرفة. وأريد بدوري أن أحكي لك حكايتي، كل حكايتي ولن أخفي شيئاً عنك، وبعدها تسديني نصيحتك... أنت إنسان غاية في الذكاء، فهل تعدني بأنك سوف تسديني النصيحة؟

أجبتها قائلًا:

- آه يا "ناستنكا"، أنا لم أكن ناصحاً في يوم من الأيام، ولم أكن على وجه الخصوص ناصحاً حكيماً.. لكني أرى الآن أن حياتنا لو ظلت تمضي على هذا النحو، فذلك أمر في منتهى الحكمة، ويستطيع كل منا أن يسدي للآخر النصائح الذكية دائماً! والآن يا عزيزتي "ناستنكا"، أية نصيحة تريدين؟ أخبريني بها مباشرة، فكم أشعر بالبهجة والسعادة، وبالشجاعة والذكاء، لدرجة أن الكلمات سوف تنهمر مثل السيل من فمي بلا عناء.

قاطعتني "ناستنكا" ضاحكةً، وقالت:

- لا، لا، أنا لا أحتاج إلى نصيحة حكيمة، بل نصيحة قلبية، أخوية وكأنك أحببتني طوال حياتك.

هتفت بحماس قائلًا:

- اتفقنا يا "ناستنكا"، اتفقنا، ولو أنني أحببتك منذ عشرين عاماً، لما كان حبي أقوى مما عليه الآن.

قالت "ناستنكا":

- أعطني يدك.

أجبتها وأنا أمدُّ يدي:

- إليكِ يدي.

قالت:

- والآن سوف أبدأ سرد حكايتي.

حكاية "ناستنكا"

—أنت الآن صرت تعرف نصف حكايتي، وتعرف أن لديَّ جدة عجوزاً...

قاطعتها ضاحكًا:

—لو أن النصف الآخر قصير مثل ذلك...

—اسكت واستمع، ولنتفق أولاً: لا تقاطعني، وإلا فسوف أرتبك وتُشتت أفكاري، لذلك أنصت لي في هدوء. لديَّ جدة عجوز، وجدتُ نفسي معها منذ كنت طفلة صغيرة للغاية، وذلك بعد وفاة أمي وأبي. ويمكن التخمين بأن جدتي كانت ثريةً في الماضي؛ لأنها حتى الآن تتذكر أياماً أفضل من أيامها الحالية. وقد علَّمتني اللغة الفرنسية، وبعد ذلك استقدمت لي معلماً خاصّاً. وعندما بلغت الخامسة عشرة "أنا الآن في السابعة عشرة من العمر" انتهيت من الدراسة. وفي ذلك الوقت ارتكبت فعلاً طائشاً، ولكنني لن أخبرك بما ارتكبتُه، بل يكفي القول بأنها كانت حماقة بسيطة. لكن الجدة دعتني ذات صباح، وقالت لي إنها لا

تستطيع متابعتي؛ لأنها ضريرة، ثم تناولت دبوساً ربطت به فستاني إلى ثوبها، وأخبرتني بأننا سوف نظل جالستين معاً على هذا النحو طوال العمر، طالما لم يتحسَّن سلوكي بالطبع. وخلاصة القول أنني في البداية لم أستطع الابتعاد عنها بأية وسيلة، وصار عليَّ العمل والدراسة والقراءة وأنا ملتصقة بجدتي. وذات مرة حاولت التحايل على الأمر، وأقنعت "فيلكا" أن تجلس مكاني، و"فيلكا" هي خادمة صماء تعمل لدينا. فجلست "فيلكا" بدلاً مني. وفي ذلك الوقت كانت الجدة تغطُّ في سُباتها فوق مقعدها، بينما تسللت أنا مسرعةً إلى إحدى صديقاتي. لكن الأمر انتهى نهاية أليمة. فقد استيقظت جدتي من نومها أثناء غيابي، وطلبت شيئاً ما، وهي تظن أنني ما زلت جالسةً بمكاني في هدوء. ونظرت "فيلكا" إلى الجدة، وأدركت أنها تسأل شيئاً، لكنها بالطبع لم تسمع ما تطلبه، وصارت تفكر وتفكر فيما تفعله، ثم انتزعت الدبوس، وأطلقت ساقيها للريح.

وهنا توقفت "ناستنكا" عن الكلام، وانفجرت في الضحك. وضحكتُ بدوري معها، لكنها توقفت وقالت:

- أحذرك ألا تهزأ بجدتي، لقد ضحكت لأن ما جرى كان مضحكاً.. إنها جدتي في جميع الأحوال، ورغم طبيعتها إلا أنني أحبها قليلاً. المهم أنني بعد ذلك نلتُ ما يكفي من التوبيخ، وأعادتني إلى مكاني معها ثانيةً، ومنعتني من الحركة ولو قيد أنملة.

نسيتُ أن أخبرك بأن لدينا -أعني لدى جدتي- بيتاً، وهو بيت صغير بثلاث نوافذ فقط، وكله من الخشب، كما أنه قديم قِدم جدتي، وأعلاه غرفة أسفل السقيفة، وقد جاءنا مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة.

سألتها سؤالاً عابراً:

- إذاً، كان يسكنها مستأجر قديم؟

ردَّت "ناستنكا":

- بالطبع، وكان قادراً على إلتزام الصمت والاستماع أفضل منك.. وفي الحقيقة كان يحرِّك لسانه بالكاد. كان عجوزاً، نحيفاً، ضريراً، أبكم، أعرج، حتى إنه لم يقوَ في النهاية على البقاء في هذه الدنيا، فرحل عنها ومات. وبعد موته صرنا في حاجة إلى مستأجر جديد؛ لأننا لا نستطيع العيش بغير مستأجر، حيث إن قيمة الإيجار ومعاش جدتي يمثلان

تقريباً الدخل الوحيد لنا. وصدف أن المستأجر الجديد كان شاباً مغترباً عن المدينة. وبما أنه لم يساوم فقد قبلت جدتي أن تؤجره الحجرة، ثم سألتني: "أخبريني يا "ناستنكا"، هل هذا المستأجر شابٌّ أم مسنٌّ؟" ولم أرغب في الكذب فأجبتها: "إنه ليس بالفتى الشاب وليس بالعجوز"، فسألتني: "وهل يتمتع بطلعة وسيمة؟"، ومرة ثانية واصلت الرد بصراحة وقلت: "نعم، إنه وسيم الطلعة يا جدتي"، وهتفت جدتي: "يا للمصيبة! يا للمصيبة! لقد سألتك يا حفيدتي العزيزة عن هيئته تحديداً؛ كي لا تطيلي النظر إليه.. يا له من زمن نعيش فيه، يأتينا مستأجر وسيم؛ كي يستأجر المكان بأجر زهيد.. لم تكن الأمور تسير على هذا الحال في زماننا!".

كانت جدتي تعيش كل حياتها في الزمن الماضي. فتقول إن نضارة شبابها كانت في الماضي، وإن حرارة الشمس كانت أكثر دفئاً في الماضي، وإن القشدة كانت تظل طازجة لفترة أطول في الماضي، وكل شيء إنما يجري في الماضي! بينما أجلس صامتةً وأفكر في نفسي: ما الذي يجعل جدتي تنبِّهني، وتسألني عن نزيلنا إن كان وسيماً وفتيّاً؟ ومرَّ هذا التساؤل

بخاطري مرور الكرام، ثم عدتُ ثانية أعدُّ الغُرَز، وأواصل غزل الجورب، وبعد ذلك نسيت ما فكرت به تمامًا.

وفي صباح أحد الأيام جاء إلينا المستأجر يُذكِّرنا بوعدنا له، بتغطية جدران الحجرة بأوراق الحائط. وجرى تبادل الكلمات والحديث والعبارات، حيث إن جدَّتي كانت ثرثارة، ثم صاحت بي: "اذهبي يا ناستنكا إلى حجرة نومي، وأحضري الحسابة[14]". فقفزت على الفور من مكاني، وقد احمرَّ وجهي من خجل لا أدري سببه، ونسيتُ تماماً أنني مربوطة، وبدلًا من أن أنزع الدبوس برفق كي لا يلاحظه المستأجر، وثبتُ مسرعةً حتى جرجرتُ خلفي مقعد جدتي، وصار يتبعني. وما أن أدركت افتضاح أمري، وأن المستأجر أدرك كل شيء حولي، حتى ازداد احمراري، وتجمَّدت في مكاني، ثم انفجرتُ فجأة باكيةً، ويا للخجل والأسى المرير اللذين شعرتُ بهما، حتى تمنيتُ أن تنشقَّ الأرض

[14] الحسابة: لوحة خشبية مفرغة مستطيلة الشكل، يتخللها صفوف عرضية من القطع العظمية الصغيرة المستديرة، تستخدم في روسيا (ما زالت تستخدم حتى الآن في مختلف المتاجر) في حساب الأعداد والأرقام. – المترجم

وتبتلعني؛ كي لا أرى هذا العالم ثانية! بينما صرخت الجدة بي تقول: "لماذا تقفين في مكانك؟"، ازدادت حالتي سوءاً، ولما شاهدني المستأجر خجلى أمامه، انحنى وغادرنا في الحال.

منذ ذلك الحين، صار وجهي يزرقُّ مثل الموتى، كلما سمعت أي صوت يتردد عند المدخل، وأفكر بأن النزيل قادم، فأنزع الدبوس بخفة؛ حتى لا يتكرر المحظور. لكن النزيل لم يكن يظهر بعد تلك الأصوات. وبعد مرور أسبوعين، أرسل يخبرنا على لسان "فيلكا" بأن لديه الكثير من الكتب باللغة الفرنسية، وكلها كتب جيدة جديرة بالقراءة، ويمكن أن أقرأ منها لجدتي كما أشاء كي أسلّيها. وافقت الجدة بامتنان. لكنها ظلت تسأل: "هل هذه الكتب أخلاقية أم لا؟ إن لم تكن أخلاقية يا "ناستنكا"، فليس عليكِ أن تقرئيها، وإلا علمَتكِ الشرور".

- ما هي هذه الشرور يا جدتي؟ وما الذي تحتويه هذه الكتب؟

- أووف، إنها تصف الشبان الذين يُغوون الفتيات الصغيرات الفاضلات، والألاعيب التي يلجأون إليها، حيث يعدونهن بالزواج،

ويأخذوهن من أسرهن، وبعد ذلك يهجرون أولئك الفتيات التعيسات، ويتركونهن للأقدار، حتى يهلكن بأكثر الوسائل إثارة للشفقة والرثاء.

- واصلت الجدة حديثها وقالت:

- وقد قرأتُ بنفسي العديد من مثل هذه الكتب، وكلها مكتوبة بصورة مشوقة؛ كي تجعلك تجلسين ليلاً تطالعينها بشغف، لهذا يا "ناستنكا" إياكِ أن تقرئيها.. وبالمناسبة، ما هي الكتب التي أرسلها ذلك الشاب؟

- كلها روايات ل"والتر سكوت" يا جدتي.

- روايات "والتر سكوت"! من الجائز أنها تحتوي على بعض المواقف الغرامية؟ انظري بداخلها، فربما ترك بها بعض المذكرات الغرامية وقصاصات العشق.

- لا يا جدتي، لا يوجد بها مذكرات.

- انظري جيداً تحت الغلاف، فأولئك الأوغاد أحياناً يدسُّونها تحت الغلاف.

- لا يا جدتي، لا يوجد شيء تحت

الغلاف أيضاً.

- حسناً، طالما الأمر هكذا فلا بأس.

وبدأنا في قراءة أعمال "والتر سكوت"، وفي خلال شهر تقريباً كنا قد انتهينا من قراءة نصفها. وبعد ذلك ظل يرسل لنا المزيد والمزيد، كما أرسل لنا أعمال "بوشكين". وفي النهاية صرت لا أتصور الحياة بدون الكتب، وكففتُ عن التفكير في الزواج بالأمير الصيني.

واستمرَّ الحال على هذا النحو، حتى إلتقيتُ مصادفة بنزيلنا على الدرَج، وذلك عندما أرسلتني الجدة؛ كي أحضر لها بعض الأشياء. توقف الشاب، واحمرَّ وجهي خجلاً، كما احمرَّ وجهه أيضاً، لكنه ابتسم وقام بتحيتي، وسألني عن أحوال الجدة وصحتها، ثم قال: "هل انتهيتِ من قراءة الكتب؟"، فأجبته: "نعم قرأتها"، "وأي منها أعجبك أكثر من

غيرها؟" فأجبته: "آيفينجو[15]" ، وبوشكين، هما أكثر الأعمال التي أعجبتني". وانتهى حديثنا في تلك المرة عند تلك العبارات.

بعد مرور أسبوع إلتقيت به عند الدرَج ثانية. ولكن في تلك المرة لم ترسلني جدتي، بل خرجت لقضاء شيء يخصني. كانت الساعة تشير إلى الثالثة. وكان النزيل يعود إلى البيت في ذلك الوقت. وقال لي: "مرحبًا"، وأجبته: "مرحبًا". وقال:

- ألا تشعرين بالضجر من طول جلستك بجوار جدتك طوال اليوم؟

احمرَّ وجهي، وتملكني الخجل الشديد من سؤاله، وأغضبني أن الغرباء صاروا يسألونني حول هذا الأمر. وأردت الانصراف دون الإجابة عن سؤاله، لكنني لم أقوَ على ذلك. وقال لي:

---

[15] آيفينجو، بالإنجليزية: (Ivanhoe) واحدة من أوائل الروايات التاريخية. وقد نُشرت في عام 1819 باعتبارها عملاً لمؤلف يُدعى Waverley، ولكن تبين لاحقاً أنها تعود إلى والتر سكوت. وقد صُنفت في القرن التاسع عشر باعتبارها من كلاسيكيات أدب المغامرات. – المترجم

- أريد أن أخبرك أنكِ فتاة طيبة القلب! واعذريني عندما أتحدث إليكِ بهذا الكلام، وأؤكد لكِ أنني أريد لكِ الخير أكثر من جدتك نفسها. أليس لديكِ صديقة يمكنك

زيارتها؟

أخبرته أن لديَّ صديقة اسمها "ماشنكا"، لكنها رحلت إلى بسكوف.

فقال لي:

- هل تريدين أن تصحبيني إلى المسرح؟

- إلى المسرح؟ ولكن... ماذا أفعل مع جدتي؟

- يمكنك التسلل خفية عن جدتك.

- لا، لا أريد أن أخدع جدتي، إلى اللقاء.

- كما تشائين، إلى اللقاء.

ودَّعني ولم يُضف شيئاً. وبعد الغداء فقط أتى إلينا. وجلس، ثم مضى يتحدث طويلاً مع جدتي، وسألها عن أحوالها، وإن كانت تخرج لزيارة أماكن أخرى، وإن كان لديها بعض المعارف، ثم أردف قائلاً فجأة:

"لقد حجزت اليوم مقصورة بدار الأوبرا، حيث تعرض اليوم أوبرا حلاق إشبيلية[16] ، وكان مفترضاً أن يصاحبني بعض الأصدقاء، لكنهم اعتذروا عن الحضور، وظلت معي بطاقات المقصورة". فصاحت جدتي في انفعال:

- حلاق إشبيلية! أهو ذلك "الحلاق" نفسه الذي عرضوه في الماضي؟

- نعم، هو ذلك "الحلاق" نفسه.

أجابها وألقى نظرة نحوي، فأدركت كل شيء، واحمرَّ وجهي، وخفق قلبي بشدة حتى كاد أن ينخلع من صدري من اللهفة. وقالت الجدة:

- وكيف لأحد ألا يعرف تلك الأوبرا؟ لقد لعبتُ بنفسي في الماضي دور روزينا[17]، وذلك في المسرح المنزلي.

---

[16]حلاق إشبيلية: واحدة من أشهر المسرحيات الغنائية التي وضعها المؤلف الموسيقي الإيطالي الشهير (جوفاني أنطونيو روسيني) عام 1773. – المترجم

[17]روزينا: اسم الشخصية التي لعبت دور المربية في أوبرا حلاق إشبيلية. – المترجم.

وقال النزيل:

- إذاً، ألا تريدين حضور ذلك العرض اليوم؟ كي لا تضيع البطاقات المحجوزة هباءً.

أجابت الجدة:

- نعم، أظننا سوف نذهب، ولمَ لا نحضر العرض؟ خاصة أن عزيزتي "ناستنكا" لم تذهب إلى المسرح من قبل.

يا رب السماوات! يا للسعادة التي غمرتني. وسرعان ما تهيَّأنا، وارتدينا ثيابنا وانطلقنا. ورغم أن جدتي كانت ضريرة، إلا أنها رغبت في سماع الموسيقى، بالإضافة إلى أنها كانت عجوزاً طيبة القلب، وأرادت أن تسعدني، ولو كنا بمفردنا لما خرجنا أبداً. أما حول انطباعي عن حلاق إشبيلية، فلن أحدثك عنه، بل أخبرك فقط أن نزيلنا ظل طوال السهرة يتطلع نحوي بنظرات حنونة، ويتحدث بصورة رائعة. فأدركتُ في الحال أنه أراد اختباري بما عرضه عليَّ في الصباح، عندما طلب أن أخرج معه بمفردي. ويا للفرحة التي شعرتُ بها! ورقدتُ للنوم وأنا في حالة من الفخر والبهجة التي لم أشعر بها قبلاً، وخفق قلبي بشدة حتى

أصابتني حمَّى خفيفة، وصرت أهذي طوال الليل بحلاق أشبيلية. كنت أظن أنه بعد ذلك سوف يعاود زيارتنا أكثر فأكثر. ولكن، خاب ظني، حيث إنه انقطع عن زيارتنا تقريباً. كان يأتي مرة واحدة في الشهر كي يدعونا إلى المسرح فقط. وخرجنا معه مرتين. ولم يُرضِني على الإطلاق الاكتفاء بهذه الزيارات الشحيحة. لكنني أدركت أن ما يفعله إنما بدافع الشفقة نحوي، والرثاء لحالي، وأنا حبيسة مع جدتي في تلك الزريبة، ولا شيء أكثر من هذا. ومع مرور الأيام، صرت لا أدري ما ألمَّ بي. فما عدتُ أجلس مطمئنة البال، ولم تعد لديَّ رغبة في القراءة، ولا العمل، فتارةً أضحك، وتارةً أخرى أتعمَّد القيام ببعض الأفعال التي تزعج جدتي، وأحياناً أستغرق في البكاء فقط، حتى أصابني النحول، وشارفت على المرض. وعندما انتهى موسم العروض الغنائية المسرحية، توقف النزيل عن الحضور إلينا تماماً. وعندما إلتقينا، على الدرَج نفسه، اكتفى النزيل بالانحناء في صمت ورصانة، وكأنه يخبرني بعدم رغبته في الحديث، ثم صعد إلى حجرته أسفل السقيفة، بينما بقيتُ واقفة في منتصف الدرَج حمراء بلون الكرز؛ لأن الدماء كانت تندفع بقوة إلى رأسي كلما إلتقيتُ به.

والآن حان وقت النهاية. فمنذ عام بالتمام، أتى إلينا النزيل في شهر مايو، وأخبر جدتي بأنه قد أنهى عمله هنا تماماً، وعليه الرحيل ثانيةً إلى موسكو لمدة عام. وما أن سمعتُ قوله حتى امتقع وجهي، وسقطت على المقعد مثل الميتة. ولم تلحظ الجدة أي شيء، أما هو، فبعد إعلانه عن رحيله، انحنى مودعاً وخرج.

ما الذي كان عليَّ أن أفعله؟ فكرتُ وفكرتُ، وتملكني كرب وكآبة، ثم قررتُ أن أحسم كل شيء في مساء هذه الليلة، عندما تذهب الجدة للنوم، حيث إنه سوف يرحل في الغد. وكان هذا ما جرى. فجمعتُ في صرَّة واحدة كل فساتيني، وكل ما أحتاجه من الملابس الداخلية. وحملت صرَّتي وسرت أصعد إلى السقيفة، وأنا ما بين الحياة والموت. ولاح لي أنني أمضيت ساعة بأكملها في صعودي الدرج. وعندما فتحتُ باب حجرته، أطلق صيحة خوف شديد عندما أبصرني. فقد خُيِّل إليه أنني شبح تراءى له، ثم أسرع بإحضار بعض الماء لينعشني به؛ لأنني كنت أقف بالكاد على قدمي. وصار قلبي يدق في صدري حتى شعرت بالألم يضرب رأسي، وبغشاوة تكسو عقلي. وعندما استعدت رشدي، كان أول ما فعلته أن وضعت صرتي فوق فراشه مباشرة وجلست

بجوارها، ثم أخفيتُ وجهي بيدي، وانخرطت في بكاء مرير. وبدا أنه أدرك في لمح البصر كل شيء، ووقف أمامي شاحباً ينظر نحوي بنظرات حزينة جثمت فوق قلبي حتى كاد ينفطر لها. وبدأ في الحديث، وقال:

- اسمعيني، أريدك أن تسمعيني جيداً يا "ناستنكا"، ليس بوسعي أن أفعل شيئاً، فأنا رجل فقير لا أملك شيئاً من حطام الدنيا، ولا حتى مسكناً لائقاً، فكيف يمكننا العيش لو تزوجتُ بكِ؟

تحدثنا طويلاً، وفي نهاية الحديث تفجَّرت داخلي نوبة عصبية، وصرت أحكي له بأنني لم أعد قادرةً على العيش مع جدتي، وسوف أهرب منها، ولا أريد أن أظل مربوطةً بدبوس معها، ولو قبِل فسوف أسافر معه إلى موسكو؛ لأنني لا أستطيع الحياة بدونه. وتكلمت معه في وقت واحد بلغة الحب والخجل والكبرياء، وكدتُ أقع فوق الفراش في حالة من التشنُّج. وقد تملكني أشد الخوف من رفضه!

ظلَّ صامتًا لبضع دقائق، ثم نهض واقترب مني وأمسك بيدي، وبدأ يتحدث والدموع في عينيه:

- عزيزتي "ناستنكا" الطيبة الرقيقة، أقسم لكِ بأنني عندما أصبح قادراً على الزواج، فلن يصبح أحد سواك مصدراً لسعادتي. فسوف أسافر إلى موسكو، وأجرِّب حظي هناك لمدة عام واحد فقط. وآمل أن يحالفني التوفيق في العمل، ولو أنكِ بقيتِ على حبكِ لي عند عودتي، فأقسم لكِ بأننا سوف نصبح أسعد الناس على الأرض، أما في الوقت الحالي فلا يجوز، وليس بوسعي، ولا يحق لي أن أعدك بأي شيء. وأكرر لكِ إن لم يتحقق هذا خلال عام، فسوف يتحقق وبالحتم في وقت من الأوقات، وذلك بالطبع إن لم تفضِّلي عليَّ أحداً آخر؛ لأنني لا أستطيع، ولا أقدر أن أربطك بأي عهد.

كان هذا ما قاله لي، ثم رحل في الصباح. وقد اتفقنا ألا نخبر جدتي بكلمة واحدة مما جرى، وهذا ما أراده بنفسه. وها هي حكايتي قد انتهت الآن تقريباً. ومضى عام بالتمام، وقد عاد منذ ثلاثة أيام، و... و...

هتفت بنفاد صبر أسألها:

- ماذا حدث بعد وصوله؟

أجابت "ناستنكا"، وكأنها تستجمع قواها:

- لم يظهر حتى الآن! ولم أسمع عنه خبراً.

وهنا توقفت عن الحديث، وظلَّت صامتة لفترة من الوقت، ثم أحنت رأسها وأجهشت بالبكاء وهي تنشج نشيجاً مريراً، اخترق قلبي وجعله يتخبط في مكانه.

لم أكن أتوقع مثل هذا الفراق بأي حال من الأحوال. وقلت لها بصوت خجول حنون:

- عزيزتي "ناستنكا"، لا تبكي أرجوكِ، ما أدراكِ؟ فربما أنه لم يعد من السفر بعدُ؟

ردَّت على الفور:

- لقد عاد، عاد، أعرف أنه هنا، لقد كان بيننا عهد، عندما اتفقنا في ذلك المساء عشية سفره، عندما صرحنا بكل الأشياء التي سردتها لك، وتعاهدنا، ثم خرجنا بعد حديثنا، وأتينا نتنزَّه هنا على هذا الكورنيش تحديداً، وكانت الساعة العاشرة عندما جلسنا معاً على هذه الأريكة، لكنني لم أبكِ حينذاك، بل كنت سعيدة بالإصغاء إلى حديثه... وقال لي إنه سوف يأتي إلينا بمجرد عودته، وإن كنت ما زلت على حبه، فسوف

نكاشف جدتي بكل شيء. وها هو قد عاد الآن. أعرف ذلك، ولم يحضر، لم يحضر!

انخرطتْ في البكاء من جديد. وانتفضتُ واقفاً وأنا أهتف في يأس تام:

- يا ربي! ألا يوجد سبيل للتخفيف من هذا الحزن؟ أخبريني يا "ناستنكا"، هل يمكنني الذهاب إليه؟

رفعت رأسها فجأة وقالت:

- وهل يجوز هذا الأمر؟

استدركتُ قائلاً:

- لا، من البديهي أنه لا يجوز. ولكن بوسعك أن تكتبي له رسالة.

أجابت بحسم وقد رفعت رأسها دون أن تنظر نحوي:

- لا، هذا أمر لا يجوز، ولا يمكن حدوثه!

واصلت إلحاحي على فكرتي وقلت:

- ولماذا لا يجوز؟ هناك أنواع من الرسائل تختلف كل منها عن الأخرى.. اسمعيني يا "ناستنكا"، فهذا هو الأمر الصحيح.. ثقي بي، ثقي بأنني لن أسيء نصحك، ويمكن ترتيب كل هذا الأمر.. وأنت بدأتِ الخطوة الأولى، فلما تُحجمين الآن؟

- لا أستطيع، لا أستطيع، وإلا سوف أبدو وكأنني أفرض نفسي عليه ولا...

قاطعتها دون أن أخفي ابتسامتي وقلت:

- عزيزتي "ناستنكا" الرقيقة! ما دمتِ ترفضين فهذا حقك في النهاية؛ لأنه عاهدك. ولكن كل ما سمعته عنه يشير إلى أنه رجل مرهف الحس، سلك مسلكاً نبيلاً. وانطلاقًا من قناعاتي واستنتاجاتي الشخصية...

واصلت حديثي بنبرة حماسية صارت تعلو أكثر فأكثر، وقلت:

- كيف كان سلوكه معك؟ ألم يقطع عهداً على نفسه؟ كما أخبركِ بأنه لو تزوج في يوم ما، فلن يتزوج بأحد غيرك، وترك لكِ الحرية التامة برفضه إذا ما شئتِ في أي لحظة.. وفي هذه الحالة يمكنك القيام

بالخطوة الأولى، فهذا حقك، وتمتلكين الأفضلية نحوه، فلو أردتِ، على سبيل المثال، يمكنكِ أن تجعليه في حِلّ من عهده.

- ولكن... لو أخذتُ برأيك، فما الذي سوف تكتبه؟

- أكتب ماذا؟

- الرسالة التي تتكلم عنها.

- أكتب... أكتب على هذا النحو: السيد المحترم... هل من الضروري كتابة السيد

المحترم؟

- نعم، من الضروري.. وعلي أية حال فأنا ما زلت أفكر...

- حسناً، حسناً، ماذا بعد؟

- السيد المحترم! اعذرني أنني...

- لا، لا داعي لذكر أي اعتذار، فالواقع يسوّغ نفسه، اكتبي ببساطة: "أكتب لك راجيةً أن تغفر لي نفاد صبري، ولكنني عشت عاماً في سعادة مبعثها الأمل، فهل أكون مخطئة إن لم أحتمل يوماً واحداً من الشكِّ؟

ولو أن نواياك قد تبدلت بعد عودتك الآن، فإنني في هذه الرسالة لا أدينك ولا ألومك، وأنا لا أعاتبك؛ لأنني لا أملك السلطان على قلبك، وليكن هذا قدري.

أعلم أنك نبيل الخلق، ولن تهزأ بما أكتبه، أو تنزعج من كلماتي التي تعبِّر عن لهفتي، وتذكَّر أن من تكتبها فتاة بائسة، وأنها وحيدة ليس لديها من يُعلّمها أو ينصحها، ولا يمكنها السيطرة على قلبها. واغفر لي أن الشك دبَّ في روحي ولو للحظة خاطفة، فأنت لست قادراً حتى على التفكير في إهانة من أحبتك كثيرًا، وما زالت تحبك".

هتفت "ناستنكا" والفرحة تسطع في عينيها:

- نعم، نعم، هذا ما فكرتُ به تماماً! أوه.. لقد بددتَ كل شكوكي.. لقد أرسلك الله لي من السماء! أشكرك.. أشكرك.

نظرت إلى وجهها الباسم، وقلت بحماس:

- علام تشكرينني؟ لأن الله أرسلني إليكِ؟

- نعم، وليكن لهذا على الأقل.

- يا "ناستنكا" العزيزة! يمكننا أن نشكر الناس لمجرد وجودهم في الحياة معنا، وأنا الذي أشكرك؛ لأنني إلتقيتُ بكِ، ولأنني سوف أظل أتذكركِ طوال العمر!

- كفى، كفى، واستمع لي الآن: لقد اتفقنا على أنه بمجرد عودته، فسوف يعلمني بوصوله، وذلك بأن يترك لي رسالة في مكان محدد، فلديَّ بعض المعارف الطيبين البسطاء، الذين لا يعرفون شيئاً حول هذا الأمر، وإن لم يتمكن من الكتابة، حيث إننا لن نستطيع قول كل الأشياء في الرسالة، فعليه أن يأتي إلى هنا يوم عودته في العاشرة مساءً تماماً، في المكان الذي اتفقنا أن نلتقي فيه معاً. أما فيما يتصل بعودته، فقد عرفتُ بذلك، وها هو اليوم الثالث لوصوله، دون أثر له أو لرسالة منه. كما أنني لا أستطيع الخروج وترك جدتي في الصباح. ولتنقل أنت الرسالة بنفسك في الصباح إلى أولئك المعارف الطيبين الذين أخبرتك عنهم، وسوف يرسلونها بدورهم، ولو جاء الردُّ فاحمله إليَّ في العاشرة مساءَ.

- ولكن الرسالة، الرسالة! أليس علينا كتابة الرسالة أولاً؟ وبالتالي سوف أنقلها بعد الغد.

ارتبكت "ناستنكا" بعض الشيء، وقالت:

- الرسالة...

لم تنهِ عبارتها، بل استدارت بوجهها عني في البداية، واحمرَّت مثل الزهرة، ولم أشعر إلا والرسالة بين يديَّ. ويبدو أنها قد كتبتها بالفعل منذ فترة طويلة، مرتَّبة ومغلَّفة. وعبرت بخيالي إحدى الذكريات المألوفة المبهجة واللطيفة، وبدأت أترنم:

- رو.. رو.. رووزينا... رو.. رو.. روزينا.

- رو.. رو.. رووزينا..

أخذنا نغني سويّاً، وكدت أن أعانقها في غمرة النشوة، واحمرَّت بقدر ما بوسعها الاحمرار، وخرجت ضحكاتها عبر الدموع التي بدت وكأنها اللآلئ، وهي ترتجف فوق أهدابها السوداء، ثم قالت بلهجة سريعة:

- هيا، يكفي هذا، يكفي، إليك الرسالة، وها هو العنوان الذي سوف تنقلها إليه، إلى اللقاء! وإلى الغد!

شدَّت على يدي بقوة بكلتا يديها، ثم أومأت برأسها، وانطلقت مثل السهم تسير عبر زقاقها. وبقيت طويلاً واقفاً في مكاني أودِّعها بنظراتي. وعندما توارت عن ناظري، ترددت في أعماقي هذه كلمات: "إلى الغد! إلى الغد!"

الليلة الثالثة

كان اليوم يوماً حزيناً، ممطراً، غائماً بلا أنوار، أشبه بشيخوختي المقبلة. وتخللني نوع من الأفكار المخيفة، والمشاعر القاتمة التي تزاحمت بداخلي، وتدافعت أسئلة غامضة إلى رأسي. ولم يكن لديَّ لا الرغبة ولا الإرادة لحل غموضها. فلست أنا القادر على حل كل هذا! لن نلتقي اليوم. وعندما افترقنا أمس، اكتست السماء بالغيوم، وارتفع الضباب. وقد قلتُ لها إن الجو سوف يكون في الغد رديئاً، لكنها لم تجب بشيء؛ لأنها لم ترغب أن يعكر ذلك صفو الغد، حيث إنه لا بد وأن يكون يوماً صحواً مشرقاً، ولن تستطيع غيمة واحدة أن تحجب عنها السعادة. وقالت لي:

—إذا أمطرت، فلن نلتقي، ولن يمكنني الحضور. لكنني أملت ألا تنتبه إلى نزول المطر، ولكنها لم تأتِ. كان أمس لقاءنا الثالث. وكانت ليلتنا البيضاء الثالثة.

كم تجعل الفرحة والسعادة الإنسان جميلاً رائعاً! وكم يفور القلب ويفيض عشقاً، حتى تبدو لك الرغبة أن تسكب كل ما بقلبك في قلب الآخر، وتتمنى أن تغمر الجميع السعادة والبهجة. فما أشد سريان الفرح بالعدوى! كانت كلماتها أمس تحمل الكثير من الرقة والعذوبة إلى قلبي... وكم اهتمَّت بي وداعبتني، وكم لاطفت قلبي وأحيته! ويا للسحر في هذه السعادة! وسلمت بكل هذا عن زيف غير حقيقي، وفكرت بأنها...

ولكن، يا رب السماوات، كيف استطعت التفكير على هذا النحو؟ كيف يمكنني أن أصبح بهذه الغشاوة؟ بينما صار كل شيء مملوكاً للآخرين؟ لم يكن لي أي شيء، وحتى تلك الرقة وذلك الاهتمام والحب، نعم، حبها لي لم يكن سوى فرحتها باللقاء المرتقب مع الآخر، ورغبتها أن تشاركني فرحتها... وعندما لم يأتِ، وجلسنا في انتظاره عبثاً، أصابها الاكتئاب، حتى عبس وجهها، وتملَّك الخوف منها. ولم تعد حركاتها ولا كلماتها تتسم بتلك الرشاقة والمرح والبهجة. والمدهش في الأمر أنها ضاعفت ملاطفاتها لي، وكأنها رغبت عن غير شعور أن تصبَّ بداخلي ما ترجوه لنفسها، وما تخشاه ألا يتحقق. وكم كانت عزيزتي "ناستنكا"

خجلى وخائفة، حتى اعتقدت بأنها أدركت حبي لها في نهاية الأمر، وصارت تشفق على حبي البائس لها. فنحن عندما يصيبنا الكرب، يزداد شعورنا بتعاسة الآخرين، ولا يتبدد ذلك الشعور، بل إنه يتضاعف.

جئت إليها مفعم القلب بالمشاعر، وجلست بانتظار اللقاء بها، وأنا بالكاد أتمالك نفسي شوقاً. ولم أستشرف ما سوف تصبح عليه مشاعري لدى رؤيتها، ولم أتنبأ بأن الأمر سوف ينتهي على هذا النحو. أما هي فكانت تشعُّ فرحاً بانتظار الرد. وكان على الرد أن يتمثل في حضوره بنفسه. كان عليه المجيء، والإسراع بتلبية دعوتها. وقد أتت قبلي بساعة كاملة. وفي البداية ظلت تضحك، بل أخذت تقهقه ضحكاً لكل كلمة أقولها. وبدأت الحديث معها، ثم إلتزمت الصمت. فقالت:

- أتعرف سبب سعادتي على هذا النحو اليوم؟ أتظنني سعدتُ لرؤيتك؟ أم لأنني أحببتك اليوم؟

ارتجف قلبي بشدة وسألتها:

- لا أعرف.

- أحبك لأنك لم تقع في حبي، ولو أن أحداً آخر غيرك في مكانك، لأزعجني وضايقني بإلحاحه، وصرَّح لي بعذابه، أما أنت فرجل غاية في اللطف!

واعتصرَتْ يدي بيديها حتى كدت أصرخ من شدة الألم، ثم صاحت تقول:

- يا ربي! يا لك من صديق!

وبعد دقيقة اكتسبت لهجتها نبرة جادة تماماً وقالت:

- لقد أرسلتك لي العناية الإلهية! فما عساه أن يحدث لي بدونك الآن؟ يا لك من رجل ناكر للذات! كم أحب حبك الطيب لي! وعندما أتزوج، فسوف نظل صديقين مقربين، بل أكثر من شقيقين. وسوف أحبك مثلما أحبه تقريباً.

تملكني حزن هائل في تلك اللحظة، وتردد في أعماقي ما يشبه ضحكات السخرية، وقلت لها:

- هل تشعرين بالقلق وتخشين أنه قد لا يأتي؟

أجابت:

- يا لك من ساذج! لو لم أكن بهذه السعادة لبكيت من لومك وعدم ثقتك بي. ولكنك أوحيت لي بفكرة تتطلب الكثير من التأمل، وسوف أفكر بها لاحقاً. وأعترف لك الآن بأنك تقول الحق. نعم! أكاد لا أعرف نفسي، وأشعر بأن كياني كله في حالة ترقب، كما أشعر بأن كل الأشياء تمضي بيسر وسهولة، و... كفى حديثاً حول المشاعر...

في هذه اللحظة تردد وقع خطوات. وتراءى لنا في الظلمة عابر مقبل علينا، فارتجفنا كلانا، وكادت أن تطلق صرخة، وتركتُ يدها، وتحركتُ أتأهب للانصراف. ولكن العابر لم يكن فتانا المنتظر.

قالت وهي تمد يدها نحوي مرة ثانية:

- ما الذي يخيفك؟ ولماذا تركتَ يدي؟ أريد أن نلتقي به معاً، وأن يعرف كم يحب أحدنا الآخر.

صحتُ بها في دهشة:

- يحب أحدنا الآخر!

وفكرت في نفسي: "آه يا "ناستنكا" لو تدرين كم المعاني الكثيرة لكلماتك، ولو أنها قيلت في وقت آخر، لتجمَّد القلب لدى سماعها، وتملَّك الشجن من الروح. أما الآن فإن يديك باردتان، بينما يداي تحترقان مثل الجمر. ما كل هذه الغشاوة التي تغطي عينيكِ؟ آه يا "ناستنكا" لو تدرين أن الإنسان السعيد قد يصبح لا يطاق في لحظة مختلفة! ولكنني لا أستطيع أن أغضب منكِ".

وأخيراً طفح قلبي وصحت بها:

- أتعرفين يا "ناستنكا" ماذا حدث لي طوال اليوم؟

- ما الذي حدث؟ هيا احكِ لي بسرعة، ولماذا لم تقل شيئاً حتى الآن؟

- أولًا يا عزيزتي "ناستنكا"، قمت بكل ما كلَّفتني به، فذهبتُ إلى معارفك الطيبين، ونقلتُ رسالتك، وبعد ذلك... بعد ذلك عدتُ إلى البيت، ورقدتُ للنوم.

قاطعتني وهي تضحك:

- أهذا كل شيء؟

قلتُ وأنا أكظم انفعالات قلبي، محاولاً إخفاء دموع بلهاء ترقرقت في عيني:

- واستيقظت قبل ساعة من موعدنا، وخُيِّل إلى أنني لم أنم، ولا أدري ما جرى لي. وخرجتُ أسير كي أقصَّ عليكِ كل شيء، ثم لاح لي أن الزمن توقف، وكأن شعوراً واحداً، وإحساساً واحداً فقط، ينبغي أن يظل بداخلي منذ تلك اللحظة وإلى الأبد، وأن هناك دقيقة واحدة ينبغي أن تستمر إلى الأبد، وأن الحياة كلها قد توقفت لأجلي بمعنى الكلمة... وعندما استيقظتُ، بدا لي أنني أسمع لحناً موسيقيّاً مألوفاً لديَّ منذ زمن بعيد، لحناً سمعته قبلاً في مكان ما، لحناً منسيّاً وممتعاً، وها هو الآن وقد تذكرته، وخيل إليَّ أنه ظل يناشدني طوال العمر كي يصعد من الروح إلى الذاكرة، والآن فقط...

قاطعتني "ناستنكا" وقالت:

- يا ربي، يا رب العالمين! ما كل هذا؟ أنا لم أفهم كلمة واحدة مما تقوله.

أجبتها بصوت شاكِ، يخفي ما تبقى من الأمل البعيد:

- آه يا عزيزتي "ناستنكا"! كنت أريد بطريقة أو بأخرى، أن أنقل إليكِ هذا الانطباع الغريب...

بعد أن حزرت الماكرة كل شيء في لمح البصر قالت:

- كفى، لقد اكتفيت، كفى.

وفجأة انطلقت في الحديث على نحو غير مألوف، وصارت تثرثر بمرح، وتضحك في خبث. وأمسكت بذراعي تواصل الضحك، وتحاول أن تشاركني مرحها. وصارت كل كلمة أتفوَّه بها، تثير لديها الضحكات الصاخبة المتواصلة... وبدأت أشعر بالغضب، فتوقفت عن المزاح، ومضت تداعبني وقالت:

- أتعرف، لقد شعرت ببعض الإحباط؛ لأنك لم تقع في حبي، فما أصعب فهم الرجل بعد موقفك مني! ولكن أيها السيد العنيد، عليك رغم ذلك الثناء عليَّ لبساطتي الشديدة. لقد أفضيتُ إليك بكل شيء، وحكيتُ لك حول كل شيء، مهما كانت الحماقات التي تدور في رأسي!

وعندما تردد صوت الجرس في أحد الأبراج البعيدة بالمدينة قلت لها:

- يبدو أن الساعة الآن الحادية عشرة، أليس كذلك؟

تجمَّدت فجأة، وتوقفت عن الضحك، ثم صارت تعدُّ الدقات، وأخيراً قالت بنبرة حيرة وخجل:

- نعم، إنها الحادية عشرة.

ندمت في الحال على أنني أفزعتها، وجعلتها تعد دقات الساعة. ولعنتُ نفسي للشر الذي ارتكبتُه. حزنتُ لأجلها ولم أجد الوسيلة التي يمكنني بها التكفير عن خطيئتي. فبدأت أواسيها، وألتمس الأعذار لغيابه عن الحضور، وأختلق مختلف الحجج والبراهين. ولم يكن هناك أحد يسهل خداعه مثلها في تلك اللحظة. فكانت تصغي بفرح إلى كل ما أواسيها من كلمات، وتسعد بكل الأعذار التي أذكرها حتى لو كانت واهية.

واصلت بحماس أكثر، ودهشة من نفسي لوضوح البراهين التي أختلقها، وقلت لها:

- يا له من أمر مضحك، إنه لم يستطع المجيء، وأنتِ يا "ناستنكا" ضلَّلتني وجعلتني أفقد إحساسي بالزمن... وعليكِ أن تفكري كالتالي: لقد تسلَّم الرسالة لتوِّه، ولنفترض أنه لم يستطع المجيء لسبب أو لآخر، وأنه سوف يردُّ برسالة، وفي هذه الحالة لن يصل الرد قبل الغد. وسوف أذهب غداً مع بزوغ الفجر لاستلامها، وأخبرك على الفور. وفي النهاية عليكِ افتراض ألف احتمال واحتمال: فربما لم يكن بالبيت وقت وصول الرسالة، ولم يقرأها حتى الآن؟ فكل شيء جائز الحدوث.

أجابت "ناستنكا":

- نعم، نعم! أنا لم أفكر جيداً، بالطبع كل شيء جائز الحدوث.

واصلت كلامها بنبرة اقتناع شديد، ولكنني شعرت بأن بداخلها فكرة دفينة تتردد في تنافر مؤسف مع ذلك الاقتناع الظاهر، وقالت:

- إليك ما سوف تفعله، سوف تذهب غداً في أبكر وقت ممكن، ولو حصلتَ على شيء فعليك أن تخبرني به في الحال، فأنت تعرف عنوان منزلي، أليس كذلك؟

وصارت تعيد عليَّ عنوان منزلها.

بعد ذلك، أصبحَتْ فجأة شديدة الحياء واللطف معي... وبدا لي أنها تصغي بانتباه إلى كل كلمة أقولها، وعندما طرحت عليها سؤالاً، إلتزمت الصمت، وارتبكت وأشاحت بوجهها عني، وعندما نظرت إلى عينيها، أدركت صواب ما جال بخاطري، فقد كانت تبكي. وقلت لها:

- هل يُعقل هذا؟ هل يُعقل؟ يا لكِ من طفلة! يا لكِ من صبية صغيرة!

- كفى...

جاهدتْ كي تبتسم وتهدأ، لكن شفتيها ظلتا ترتجفان، واستمرَّ صدرها يعلو لاهثاً أكثر فأكثر. وبعد مرور دقيقة من الصمت قالت لي:

- إنني أفكر فيك، فأنت طيب للغاية، ولو كان قلبي من الحجر لشعر بهذا، أتعرف ما جال بخاطري في هذه اللحظة؟ لقد قارنت بينكما في ذهني، لماذا هو ليس أنت؟ لماذا يختلف عنك وليس مثلك؟ إنه أسوأ منك، رغم أنني أحبه أكثر منك.

لم أجب بشيء. وبدا لي أنها انتظرت أن أُقول لها شيئاً.

- بالطبع، ربما ما زلتُ بعدُ لا أفهمه كفاية، وما زلت لا أعرفه حق المعرفة. كما أشعر وكأنني أخشاه دائماً، فهيئته تظهر لي دوماً بمظهر جادٍّ للغاية، وكأنه معتز بنفسه لأبعد الحدود، لكنه يبدو في هذه الهيئة من الخارج فقط، أما قلبه فأكثر رقة وحناناً من قلبي... وأتذكر نظرته نحوي عندما صعدت إليه حاملةً صرتي كما ذكرت لك، ولكنني أحترمه كثيراً رغم ذلك، مما يعني أننا غير متكافئين، أليس كذلك؟

أجبتها قائلاً:

- لا يا "ناستنكا"، لا، هذا يعني أنكِ تحبينه أكثر من أي شيء في العالم، بل تحبينه حتى أكثر من نفسك.

ردَّت "ناستنكا" الساذجة:

- لنفترض أن الأمر على هذا النحو، أتعرف ما أفكر به الآن؟ ولكنني الآن لن أتحدث عنه، بل أتحدث بصورة عامة، فقد فكرت في كل هذا منذ زمن طويل، لماذا لا نكون جميعاً مثل الأشقاء؟ لماذا يبدو أفضل الناس وكأنه يخفي أسراره دائماً عن الآخر، ويلتزم الصمت أمامه؟ ولماذا لا يستطيع المرء أن يبوح بأسرار قلبه صراحة، طالما يعرف أن كلامه لن

يذهب أدراج الريح؟ ذلك لأن كل واحد يحب أن يبدو أكثر فظاظة مما هو عليه في الواقع، وكأنهم جميعاً يخشون الإساءة إلى مشاعرهم، إذا ما أسرعوا بإظهارها على حقيقتها...

قاطعتها وأنا أكبح جماح مشاعري في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى وقلت:

- آه يا "ناستنكا"، أنتِ محقة في قولك، لكن هذا الأمر سببه العديد من البواعث.

أجابت بانفعال عميق:

- لا، لا، فأنت على سبيل المثال، لست كالآخرين، وأنا في الحقيقة لا أعرف كيف أصرِّح لك بما أشعر به، حيث يبدو لي أنك، على سبيل المثال... ولو حتى في هذه اللحظة... تضحي بشيء من أجلي.

ورمقتني بنظرة سريعة، ثم أضافت بخجل:

- واعذرني فيما أقوله، فأنا فتاة بسيطة، لم أعرف الكثير عن هذا العالم بعدُ، وفي الحقيقة لا أجيد الحديث أحياناً.

وأضافت بصوت مرتجف من شعور خفي بداخله، وفي الوقت نفسه تحاول أن تبتسم، وقالت:

- ولكن ما أريد قوله فقط، أنني شاكرة لك، وأنني أشعر أيضاً بكل ما تفعله.. فليمنحك الله كل السعادة؛ جزاءً لما فعلته من أجلي! كما أن كل ما حكيته لي حول رجلك الحالم بعيد عن الحقيقة، أي أنه لا يتعلق على الإطلاق. فقد تعافيتَ الآن، وأنت عن حق إنسان آخر تماماً، يختلف كل الاختلاف عن وصفك لنفسك، وإذا أحببت يوماً ما، فأدعو الله أن يهبك السعادة مع من أحببتها. أما هي، فلا أتمنى لها شيئاً؛ لأنها سوف تصبح سعيدة معك في جميع الأحوال. وأنا أعرف ذلك لأنني امرأة، وينبغي عليك أن تثق بكلامي عندما أخبرك بذلك...

ظلت صامتة بعد ذلك، ثم ضغطتْ على يدي بقوة، ولم أستطع قول شيء من فرط الانفعال.

مرَّت بضع دقائق حتى رفعت رأسها وقالت أخيراً:

- من الواضح أنه لن يأتي اليوم، فقد تأخر الوقت!

قلت بأقصى نبرة قاطعة وجازمة:

- سوف يأتي غداً.

فقالت وهي مبتهجة:

- نعم، أرى أيضاً أنه سوف يأتي غداً. إذاً، إلى اللقاء! إلى الغد! ولكن لو أمطرت فربما لن آتي، ولكنني سوف أحضر بعد غد، بالتأكيد سوف أحضر مهما يقع لي، فعليك أن تنتظرني؛ لأنني أريد رؤيتك لأحكي لك كل شيء.

وأثناء الوداع مدَّت يدها وقالت وهي تحدِّق نحوي في ثبات:

- منذ الآن سوف نظل دائماً معاً، أليس كذلك؟

- آه يا "ناستنكا"! لو أنك يا "ناستنكا" تدرين كم صرت وحيداً الآن!

بعد أن دقت الساعة التاسعة، لم أستطع المكوث بحجرتي، فارتديتُ ثيابي وخرجتُ على الرغم من الجو السيء. وذهبت إلى هناك، وجلست فوق أريكتنا. وسرتُ في الزقاق الذي يقع به بيتها، لكن الخجل تملكني بعد أن صرتُ على بُعد خطوات من البيت. فاستدرتُ دون أن أجرؤ على النظر إلى نوافذ بيتها، وعدتُ أدراجي. رجعتُ إلى بيتي وقد

استبد بي يأس لم أعرف مثيلاً له في حياتي من قبل. ويا له من جو قاتم مضجر! لو كان صحواً لخرجت أتجول هناك طوال الليل. سوف أنتظر حتى الغد، حتى الغد! وسوف تحكي لي هي كل شيء غداً.

على أية حال لم تصل منه رسالة اليوم، وهذا بالطبع أمر طبيعي، وهما الآن بالحتم معاً.

الليلة الرابعة

يا ربي، كيف انتهى كل هذا؟ وبم انتهى كل هذا؟

وصلت في الساعة التاسعة. كانت واقفةً هناك، متكئة بمرفقيها إلى إفريز الكورنيش، كما كانت متكئة عندما رأيتها للمرة الأولى. ولم تسمع وقع خطواتي عندما اقتربتُ منها. وناديتها بصوت عالٍ محاولاً كبح انفعالي:

—"ناستنكا"!

استدارت نحوي وسألتني في لهفة:

—هيا أخبرني! هيا! أسرع وقل لي.

نظرتُ إليها في دهشة وبلادة. وهتفتْ تسألني:

—أين الرسالة؟ ألم تُحضر الرسالة؟

كررتْ سؤالها وهي تقبض بيديها على الإفريز.

وقفت مشدوهاً ثم أجبتها في النهاية:

—لا، ليس معي أي رسالة، ألم يأتِ بعدُ؟

شحب وجهها على نحو مخيف، وتسمَّرت تحدق نحوي لفترة طويلة. فقد حطمت آخر أمل لديها.

وأخيرًا تحدثت بصوت متهدج:

—حسناً، وليكن... ليكن طالما أنه تركني على هذا النحو. خفضت عينيها وهمَّت بالنظر نحوي، لكنها لم تستطع. ومرَّت دقائق وهي تحاول السيطرة على انفعالها، ثم استدارت فجأة، واتكأت ثانية إلى إفريز الكورنيش، وانهمرت دموعها. وقلت لها:

—كفى، كفى.

لم أقوَ على إضافة قول آخر وأنا أراها على هذه الحال، فما الذي كان بوسعي أن أقول لها؟ وقالت وهي تنشجُ باكية:

—لا تحاول أن تواسيني، ولا تحدثني عنه، ولا تخبرني بأنه سوف يأتي، وبأنه لم يهجرني بتلك القسوة، وبهذه الطريقة غير الإنسانية كما

فعل. لماذا؟ لماذا؟ أيُعقل أنني كتبت شيئاً غير لائق في رسالتي.. في تلك الرسالة البائسة؟

صار نشيجها يمتزج بكلماتها، وأصبح قلبي يتمزق كلما نظرت إليها. وبدأت ثانيةً في الحديث:

—يا للقسوة الوحشية! لا سطر ولا كلمة واحدة! كان بوسعه أن يجيب بأنه لم يعد بحاجة إليَّ، أو أنه يرفضني، لا أن يظل لثلاثة أيام بأكملها دون أن يكتب حرفاً! ما أسهل عليه أن يهين ويذل فتاة بائسة مسالمة، كل خطيئتها أنها أحبَّته! فكم عانيت خلال هذه الأيام الثلاثة. يا ربي، يا ربي! كلما تذكرت أنني ذهبت إليه بنفسي في المرة الأولى، وأذللتُ نفسي أمامه، وبكيت أتوسل منه ولو قطرة من الحب... وبعد ذلك!إلتفتت نحوي وسطعت عيناها السوداوان وقالت:

- أتعرف؟ لا يجوز أن يمضي الأمر بهذه الطريقة، لا يجوز، فهذا أمر غير طبيعي! ولا بد أنهم خدعوك أو خدعوني، فربما أنه لم يتلقَّ الرسالة؟ لعله لا يعرف شيئًا حتى الآن؟ وإلا فكيف يمكن أن يحدث هذا؟ أخبرني بنفسك أرجوك، فأنا لا أستطيع فهم ما جرى، وكيف

يمكنه أن يكون بهذه الفظاظة والوحشية كما يفعل بي؟ ألم يستطع كتابة كلمة واحدة؟ أظن أن آخر إنسان في العالم يمكن أن يكون أكثر شفقة وعطفاً منه، أم لعله سمع شيئاً مزعجاً، أو أن أحداً أخبره بشيء سيئ عني؟

وصاحت نحوي تسألني:

- ما رأيك؟

- "ناستنكا"! سوف أذهب إليه غداً وأحدِّثه على لسانك.

- وماذا بعد ذلك؟

- سوف أسأله عن كل شيء، وأحكي له حول كل شيء.

- وبعد، وبعد ذلك؟

- عليكِ كتابة رسالة، ولا ترفضي ذلك يا "ناستنكا" ولا تعترضي! وسوف أجبره على احترام سلوكك معه، وسوف يدرك كل شيء، وإذا ما...

قاطعتني قائلة:

- لا يا صديقي، لا! لن أكتب له كلمة واحدة بعد ذلك، ولا سطراً واحداً، كفى! لن أعرفه بعد ذلك، ولم أعد أحبه، وسوف أنـ.. سـ.. ـاه...

لم تكمل كلمتها. فأجلستها على الأريكة، وقلت لها:

- هدئي نفسك، هدئي نفسك يا "ناستنكا"، واجلسي هنا.

- إنني هادئة، وقد اكتفيت من هذا الأمر، وهذه الدموع سوف تجف سريعاً. أتظنني سوف أقتل نفسي؟ أتحسب أنني سوف أرمي بنفسي في الماء؟

طفح قلبي من الأسى، وأردت الكلام فلم أستطع نطق كلمة واحدة.

تابعت وهي تمسك بيدي:

- أخبرني، لو أنك مكانه، فهل كنت تسلك مثل سلوكه؟ هل تهجر تلك الفتاة التي أتت إليك بنفسها؟ هل تهجرها وأنت ترمقها بنظرات من السخرية الوقحة لقلبها الضعيف الأحمق؟ أما كنت ترعاها؟ أما كنت تضع في حسبانك أنها وحيدة في الدنيا وفي حاجة لمن يرشدها، وليس لديها القدرة أن تحمي نفسها من الوقوع في حبك، وأنها ليست

مذنبة.. إنها في النهاية ليست مذنبة.. فهي لم تخطئ في أي شيء! آه يا ربي، يا ربي!

صحتُ بها أخيراً بعد أن صرت عاجزاً عن السيطرة على انفعالي:

- "ناستنكا"! "ناستنكا"! أنتِ تمزقين نفسي! أنتِ تنخرين قلبي بكلماتك، أنتِ تقتلينني يا "ناستنكا"! صرتُ لا أطيق الصمت، ولا بد لي أن أتكلم أخيراً، وأفصح بكل ما يفور ويغلي هنا، في قلبي.

بعد أن قلتُ لها ذلك، نهضتُ واقفاً من جلستي على الأريكة. فتناولت يدي وظلت تنظر نحوي في دهشة، ثم أخيراً قالت:

- ماذا بك؟

أجبتها بنبرة حاسمة:

- اسمعيني! اسمعيني يا "ناستنكا"! فما سوف أقوله الآن، ما هو إلا هراء، وحماقة، وكلها أحلام يقظة لا تتحقق! وأعرف أن هذا لن يحدث أبداً، ولكنني لم أعد قادراً على الكتمان. وأستحلفك باسم كل عذاباتك التي تقاسينها الآن، وأتوسل إليكِ أن تغفري لي سلفاً!

كفَّت عن البكاء، ومضت تحدق في وجهي بعينين ذاهلتين تتلألآن بنوع من الفضول الغريب، وقالت:

- إذاً، ماذا يجري؟ ماذا بك؟

لوَّحت بيدي وقلت لها:

- إنه حلم لا يمكن أن يتحقق، لكنني أحبك يا "ناستنكا"! هذا كل شيء! وها أنا أخبرك بكل شيء! والآن، هل بوسعك مواصلة الحديث معي مثلما تحدثتِ من قبل؟ وهل سوف تصغين إلى ما سوف أقوله؟

قاطعتني "ناستنكا" وقالت:

- ولِمَ لا؟ لِمَ لا؟ ما الذي يعنيه هذا؟ إنني أعرف منذ وقت طويل أنك تحبني، ولكنني تخيلت أنه حب عابر، أو نوع بسيط من الحب... آه.. يا ربي! يا ربي!

- كان الأمر بسيطًا في البداية يا "ناستنكا"، أما الآن، الآن... أصبح حالي مثل حالك تماماً، عندما ذهبتِ إليه حاملة صرتك، بل أسوأ من

حالك يا "ناستنكا"؛ لأنه في ذلك الوقت لم يكن يحب أحداً، بينما أنتِ أحببته.

- ما هذا الذي تقوله لي؟ أنا في النهاية لا أستطيع فهمك على الإطلاق، وأريد أن أعرف لماذا أنت.. لا ليس لماذا، بل أعني ما السبب في أنك... أعني أنك فجأة... يا إلهي! ما هذه الحماقة التي أتفوه بها؟ لكنك الآن..

اضطربت "ناستنكا" تمامًا، واختلط عليها الأمر، واحمرَّت وجنتاها وخفضت عينيها.

- ما الذي عليَّ فعله يا "ناستنكا"؟ ماذا بيدي أن أفعل؟ أعترف بأنني مخطئ، وأسأت استغلال ثقتك بي... ولكن، لا، لا يا "ناستنكا"، أنا لست مخطئاً؛ لأنني أسمع ذلك وأشعر به؛ لأن قلبي يخبرني بأني على حق، ولا يمكنني أن أسبب لك حزناً بأي شيء أو أهينك بأي شيء! وقد كنت صديقاً لكِ، وما زلت صديقاً، ولن أخون العهد أبداً. وها هي دموعي تنهمر يا "ناستنكا"، فلتنهمر، وأنا أدعها تنهمر، فهي لا تزعج أحداً على الإطلاق، وسوف تجف يا "ناستنكا".

قالت لي وهي تدعوني إلى الجلوس على الأريكة:

- هيا اجلس، اجلس... آه.. يا ربي!

- لا! لن أجلس يا "ناستنكا"، فلا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك، ولا يمكنك رؤيتي ثانية بعد ذلك، سوف أكمل لكِ كل ما أود قوله ثم أرحل. وكل ما أريد قوله فقط أنه ما كان ينبغي أبداً أن تعرفي بحبي لك، ولكنت احتفظتُ بسرِّي معي، ولم يكن عليَّ أن أعذبك الآن، وفي مثل هذه اللحظة بأنانيتي. ولكنني لم أعد أطيق صبراً الآن، وقد صرحتِ بنفسكِ حول هذا الأمر، فأنتِ المذنبة... أنتِ المذنبة في كل شيء، أما أنا فلست مخطئاً، ولن تستطيعي إبعادي عنكِ...

حاولت "ناستنكا" المسكينة جاهدة إخفاء انفعالها، وقالت:

- بالطبع لا، لا، لن أصدَّك أو أبعدك!

- ألن تصدِّيني؟ ألن تفعلي ذلك؟ ولكن أنا الذي أردت الهروب بعيداً عنكِ. وسوف أرحل، ولكن بعدما أصرح لكِ بكل شيء؛ لأنني لم أقوَ على البوح بشيء عندما كنتِ تتكلمين، وعندما كنتِ تبكين، عندما كنتِ تتألمين وتتعذبين بسبب.. آه.. بسبب.. واسمحي لي أن أصرح بالسبب

يا "ناستنكا"؛ بسبب صدِّه لكِ ورفضه لحبك، وقد شعرت وسمعت كم الحب الذي ينبض في أعماق قلبي نحوك... آه لو تدرين كم هذا الحب يا "ناستنكا"! ويا للمرارة التي شعرت بها لعجزي عن مساعدتك في هذا الحب... حتى انفطر قلبي، وصرت.. صرت لا أستطيع الصمت، وكان لا بد لي أن أتكلم، كان عليَّ أن أتكلم يا ناستنكا!

قالت "ناستنكا" وهي تقوم بحركة غريبة:

- نعم، نعم، تحدَّث إليَّ، تكلم معي، وربما يبدو لك ما أقوله على هذا النحو غريباً، ولكني... أرجوك أن تتكلم، وسوف أشرح لك بعد ذلك... سوف أحكي لك كل شيء!

- أنتِ تشفقين عليَّ يا "ناستنكا"، أنتِ تعطفين عليَّ يا عزيزتي الرقيقة! لكن ما ضاع قد انقضى وانتهى! وما قيل لا يمكن استعادته ثانيةً، أليس كذلك؟ وها أنتِ تعرفين كل شيء الآن، وهذه هي نقطة الانطلاق... حسناً، كل شيء يسير بصورة رائعة، وسوف أواصل الكلام، فاستمعي لما أقوله. عندما جلستِ تبكين، فكرت في نفسي قائلاً: "فلأخبرها بما يدور في رأسي"، فقد دارت برأسي فكرة "وهذا أمر

مستحيل الحدوث بالطبع يا "ناستنكا""، فكرت أنكِ... فكرت أنكِ بطريقة ما صرتِ... أي أصبحت بطريقة أو بأخرى لا تحبينه. حينئذ، أخذت أفكر أمس، وهو اليوم الثالث الذي لم أكفَّ عن التفكير فيه يا "ناستنكا"، بأن عليَّ أن أفعل، ولا بد أن أفعل.. ما يجعلك تحبينني، ألم تقولي.. ألم تصرحي بنفسك يا "ناستنكا"، بأنكِ صرتِ تقريباً تحبينني بالفعل؟ وماذا بعد ذلك؟ هذا تقريباً كل ما أردتُ قوله لكِ. ولم يبقَ لي ما أخبرك به سوى أن أتساءل: ما الذي سوف يحدث لو أنكِ أحببتني حقّاً؟ وهذا ما أردت قوله فقط، ولا شيء أكثر. ولكني أخبرك يا صديقتي؛ لأنكِ صديقتي في جميع الأحوال؛ بأنني إنسان بسيط فقير، لا قيمة له في الدنيا، عدا هذا الأمر "وأنا لا أتحدث حول هذا يا "ناستنكا"، بل أنا في حالة من الارتباك في التعبير"، وأنني سوف أظل أحبك حبّاً جمّاً، حتى لو أحببتِ ذلك الشخص الذي لا أعرفه واستمر حبك له، ولن تشعري أن حبي لكِ يمثل لكِ حملاً ثقيلاً بأي شكل من الأشكال. لكنكِ فقط سوف تسمعين وتشعرين في كل لحظة ودقيقة، أن بالقرب منكِ ينبض قلب ممتن، مفعم بالعرفان، قلب يفيض

بالمشاعر الملتهبة نحوكِ... آه يا "ناستنكا"! "ناستنكا"! ما الذي فعلتِه بي؟

قالت "ناستنكا" وهي تنهض مسرعةً من فوق الأريكة:

- لا تبكِ أرجوك، لا أريدك أن تبكي. هيا بنا، هيا انهض وتعالَ معي، لا تبك أرجوك، كفى، لا تبك...

وأخذت تجفف دموعي بمنديلها، ثم قالت:

- هيا انهض الآن، فأنا بدوري أريد أن أقول لك شيئاً... ما دام أنه هجرني، وما دام أنه نسيني، رغم أنني ما زلت أحبه، وأعترف بذلك؛ لأنني لا أريد خداعك... ولكن أريدك أن تسمعني وتجيبني، لو أنني.. على سبيل المثال، أحببتك.. أعني أن ما أريد قوله فقط.. أنني.. آه يا صديقي، يا صديقي! كلما أتذكر.. كلما تراءى لي، أنني جرحت قلبك في ذلك الوقت، وهزأت بحبك لي، وذلك عندما أثنيت عليك حينذاك؛ لأنك لم تتولَّه بحبي! يا إلهي! كيف لم أخمن هذا الأمر؟ كيف لم أستشرف عاطفتك؟ كم كنت حمقاء! ولكن.. ولكن.. لقد حسمت أمري.. وسوف أخبرك بكل شيء الآن...

- اسمعي يا "ناستنكا".. أتعرفين ما سوف أفعله؟ سوف أتركك وأرحل، وهذا كل شيء؛ لأن كل ما أقوم به في حقيقة الأمر هو تعذيبك فقط، وها هو ضميرك يؤنبكِ الآن على استهانتك بحبي، وأنا لا أريد.. لا أريد أن أزيد من تعاستك... أنا المذنب في كل هذا بطبيعة الحال يا "ناستنكا".. والآن.. وداعاً!

- لا ترحل، واستمع لما سأقوله، هل يمكنك الانتظار؟

- لماذا أنتظر؟ ماذا أنتظر؟

- أنا أحبه، لكن هذا الحب سوف ينقضي، بل إنه بدأ يزول بالفعل، فأنا أشعر بذلك، ومن يدري؟ فلعل هذا الحب صارت نهايته اليوم؛ لأنني أصبحت أكرهه، ما دام قد هزأ بي وسخر مني، في الوقت الذي جلسنا فيه معاً، وبكيتَ معي، ولأنك لم تنبذني مثلما فعل، ولأنك أحببتني حقّاً بينما لم يحبني، ولأنني في نهاية الأمر أحبك أيضاً... نعم أحبك! أحبك كما تحبني، ألم أصرح لك بهذا من قبل؟ ألم تسمعه بنفسك؟ أنا أحبك؛ لأنك أفضل منه، وأكثر نبلاً منه، ولأنك لست مثله.. ولأنه...

بلغ انفعال المسكينة حدّاً من القوة، جعلها لا تستطيع إكمال عبارتها. ووضعت رأسها على كتفي، ثم ألقت بها فوق صدري، وأجهشت في بكاء مرير. فحاولت أن أطيب خاطرها وأهدئها، غير أنها لم تستطع التوقف عن البكاء، وظلت فقط تضغط على يدي، وقالت لي عبر نشيجها:

- انتظر، انتظر، سوف أتوقف عن البكاء الآن! وأريد أن أخبرك... لا تظن أن هذه الدموع... بل إنها نابعة من الضعف فقط... أمهلني قليلاً، وسوف ينتهي كل شيء..

وأخيراً كفَّت عن البكاء، وجففتْ دموعها، ثم مضينا نسير من جديد. ورغبت في الكلام معها، لكنها ظلت ترجوني لفترة طويلة أن أصمت. فسرنا صامتين، حتى استجمعت في النهاية شتات روحها، ومضت في الحديث، لكنها بدأت تتحدث بصوت واهن مرتجف:

- أريدك أن تعلم...

وفجأة تخلل صوتها رنين سرعان ما اخترق قلبي، وبعث فيه ألماً ممتعاً، وقالت:

- إياك أن تظنني هوائية متقلبة المزاج، ولا تظنني قادرةً على النسيان بسرعة، وخيانة العهد بيسر وسهولة... لقد أحببته لعام كامل، وأقسم لك بالله أنني بقيت مخلصة له، ولم أخن عهدي له ولا حتى في الخيال. ولكنه احتقر عاطفتي وهزأ بي، فليذهب إلى حال سبيله! لكنه جرحني وأذلَّ قلبي. وأنا، أنا لا أحبه؛ لأنني لا أستطيع أن أحب سوى الرجل العطوف واسع الصدر، الرجل النبيل الذي بوسعه أن يفهمني، ويدرك معنى الخلق النبيل، ولأنني نفسي أنتمي لذلك النوع، فهو ليس جديراً بي، وليذهب إلى حال سبيله. وقد أحسن بما فعله، فهذا أفضل من أن يخدعني لاحقاً عندما أكتشف حقيقته، وتتضح لي صورته التي رسمتها في خيالي قبلاً. ولكنه أمر طبيعي. فكيف كان لي أن أعرف يا صديقي الطيب؟

ضغطتْ على يدي، وواصلت الكلام:

- كيف كان لي أن أعرف؟ ربما كان حبي كله مجرد خداع حواس، أو نوع من الوهم بدأ باللهو والحماقة، الناجمين عن الرقابة الصارمة التي

فرضتها على جدتي؟ فربما كان عليَّ أن أحب رجلاً آخر غيره، رجلاً آخر يختلف عنه، يعطف عليَّ، و... و... دعنا من هذا، دعنا من هذا.

توقفت "ناستنكا" لبرهة وهي تلهث من شدة الانفعال، ثم قالت:

- أريد فقط أن أخبرك... كل ما أريد أن أقوله.. لكن لو أنه، بغض النظر عن أنني أحبه، لا، لا، أعني كنت أحبه، بغضِّ النظر عن هذا، فهل يمكنك أن تخبرني إن كان حبك لي بتلك القوة، التي يمكنها أخيراً إزاحة ذلك الحب السابق من قلبي؟ وإن كنت تريد أن تشفق عليَّ، ولا تريد تركي وحيدة لمصيري بلا عزاء ولا أمل، وإن أردت أن تحبني دائماً، كما تحبني الآن، فأقسم لك أن يظل عرفاني لك دائماً، وأن يصبح حبي لك جديراً بحبك، فهل تقبل يدي الآن؟

صرختُ وأنا أكاد أختنق بالنشيج:

- "ناستنكا"، "ناستنكا"! آه يا "ناستنكا"!

قالت وهي تتمالك نفسها بالكاد:

- حسناً، كفى، كفى، كفانا الآن كل هذا! لقد قيل الآن كل شيء، أليس كذلك؟ ألم نصرِّح بكل شيء؟ وها أنت سعيد وأنا سعيدة أيضًا، ولا حاجة لكلمة أخرى حول هذا الأمر، فأرجوك أن تترفق بحالي، ولتتكلم حول شيء آخر... أرجوك!

- نعم، أنتِ محقة يا "ناستنكا".. كفى حديثاً حول هذا.. فأنا الآن أحلّق من السعادة، أنا.. هيا نتكلم حول شيء آخر يا "ناستنكا".. هيا.. فلنسرع في الحديث الآن.. أنا مستعد لذلك...

لم نجد موضوعاً نتحدث حوله. فأخذنا نضحك ونبكي، ونردد آلاف الكلمات التي لا رابط بينها ولا معنى لها. كنا تارة نسير على رصيف النهر، وتارة أخرى نعود أدراجنا فجأة. وبعد ذلك نعبر الشارع، ثم نتوقف عن المشي، ونعود ثانية إلى كورنيش النهر. كنا أشبه بالأطفال تماماً.

قلت بصوت خفيض:

- أنا الآن أعيش بمفردي يا "ناستنكا"، ولكن غداً.. وأريدك أن تعلمي أنني فقير، فكل ما أتقاضاه يقتصر على ألف ومائتي روبل في العام.. ولكني أظن أن هذا الأمر لا قيمة له.

- بالطبع لا قيمة لهذا، خاصة أن جدتي تتقاضى معاشاً، ولن تصبح عبئاً علينا، وينبغي أن تقيم معنا.

- بالتأكيد سوف تنضمُّ إلينا جدتك.. ولكن فيما يتصل بـ "ماترينا".

- نعم.. كما لدينا "فيلكا" أيضاً!

- "ماترينا" امرأة طيبة، وعيبها الوحيد هو أنها عديمة الخيال، لا تتمتع بذرة واحدة من الخيال يا "ناستنكا"، لكن لا ضير في هذا!

- في جميع الأحوال فسوف تظلان معاً، ولكن عليك أن تأتي إلينا في الغد.

- كيف هذا؟ أجيء إليكم؟ حسناً، أنا مستعد..

- نعم، عليك أن تأتي وتستأجر الحجرة العلوية أسفل السقيفة، فهي الآن فارغة. كانت تسكنها عجوز لطيفة، لكنها سافرت. وأعرف أن

جدتي تفضِّل أن يكون المستأجر شابّاً، وعندما كنت أسألها: "لماذا تفضلين شابّاً صغيراً؟" كانت تجيبني: "أنا أترك الاختيار للأقدار، فقد كبرتُ في العمر، ولكن لا يذهب بكِ الظن يا "ناستنكا" أنني أريدك أن تتزوجي الآن". ولكنني حزرت أن هذا ما تريده، على عكس ما تخبرني به..

- آه يا ناستنكا!

صرنا نضحك طويلاً سويّاً، حتى قالت:

- كفى الآن ضحكاً، كفى.. أخبرني، أين تعيش؟ لقد نسيت.

- هناك بالقرب من جسر "سكوف"، في منزل "بارانيكوف".

- أهو ذلك البيت الكبير؟

- نعم، إنه بيت كبير.

- آه، أنا أعرفه، إنه بيت جميل. ولكن عليك أن تتركه، وتنتقل إلينا في أقرب وقت ممكن.

- غداً يا "ناستنكا"، غداً.. سوف أسدِّد بعض المال الذي أدين به لصاحب البيت مقابل الشقة.. ولكن هذا أمر بسيط، فسوف أتقاضى راتبي قريباً.

- أتعرف.. لعلني أستطيع أن أعطي بعض الدروس؟ أتلقّى الدروس أولاً، ثم أعطيها بعد ذلك.

- هذا أمر رائع يا "ناستنكا".. كما أنني سوف أحصل على مكافأة قريباً.

- إذاً، في الغد سوف تصبح مستأجرنا الجديد.

- نعم، وسوف نذهب إلى المسرح، ونشاهد معا "حلاق إشبيلية"، فسوف يقومون بعرضها من جديد قريباً.

ضحكت "ناستنكا" وقالت:

- نعم، سوف نشاهدها.. ولكن لا، لا داعي لأن نشاهدها، بل من الأفضل أن نذهب إلى المسرح ونشاهد عملاً آخر.

- حسناً، فلنشاهد عملاً آخر، وهذا من الأفضل حقّاً، لقد فكرت بأننا...

أخذنا نتحدث وكأننا في حالة من الهذيان، وسرنا وكأننا تائهان في دوامة من الضباب، ولم ندرِ ما حل بنا. فنتوقف أحياناً ونظل نتحدث طويلاً في مكاننا، وأحياناً أخرى ننطلق ونواصل السير في أماكن مجهولة لا يعلمها سوى الله، ومرة أخرى تنفجر الضحكات، ثم تنهمر الدموع.. وفجأة ترغب "ناستنكا" في العودة إلى البيت، فلا أجرؤ على منعها، وأبدي رغبتي في مرافقتها حتى باب البيت. وعندما نمضي في الطريق إلى بيتها، وبعد انقضاء نحو ربع الساعة، نجد نفسينا على رصيف الكورنيش، بالقرب من أريكتنا عينها.. وكانت تتنهد بعمق، ويعقب تنهداتها دموع تنساب من عينيها ثانية، فيتملكني الوجل، وأشعر ببرودة قارسة تتخللني حتى يرتجف بدني... لكنها تشدُّ على يدي في هذه اللحظة، وتجرُّني من جديد كي نسير نثرثر ونتكلم... وفي النهاية قالت "ناستنكا":

- أظن كفانا أفعالاً صبيانية!

- نعم يا "ناستنكا"، ولكنني لن أستطيع النوم الآن، ولن أذهب إلى البيت.

- ويبدو أنني أيضاً لن أستطيع النوم، ولكن.. هل يمكنك أن ترافقني إلى البيت؟

- بالتأكيد.

- والآن، لا بد لنا من العودة إلى البيت؛ فقد تسكعنا بما فيه الكفاية.

- نعم، لا بد لنا من العودة، بكل تأكيد. كلمة شرف؟ ففي كل الأحوال ينبغي على المرء العودة إلى بيته عاجلاً أم آجلاً!

أجبتها ضاحكاً:

- كلمة شرف...

- حسنًا، فلنذهب!

- فلنذهب.

- انظري إلى السماء يا "ناستنكا"، تطلعي إليها! غداً سوف يطل يوم رائع.. ما أجمل زرقة هذه السماء، وما أروع قمرها المنير! انظري إلى

تلك الغيمة الصفراء، سوف تحجبه الآن، انظري، انظري... لا، لقد مرَّت بجواره فقط وعبرته، انظري ثانية، انظري!

لكن "ناستنكا" لم تنظر إلى الغيمة، بل وقفت في صمت، وكأنها تسمَّرت في مكانها. وبعد مضيِّ دقيقة أخذت تقترب مني في خجل حتى كادت أن تلتصق بي. وكانت يدها ترتجف بين يدي، ونظرت إليها، وإذا بها تستند إليَّ وتتعلق بي أكثر

فأكثر.

في تلك اللحظة مرَّ بالقرب منا شاب يافع، ثم توقف وحدق إلينا، وواصل سيره مرة أخرى لبضع خطوات. وارتجف قلبي وسألت "ناستنكا" بصوت خفيض مختنق:

- من هذا الشاب يا "ناستنكا"؟

أجابت بصوت هامس وهي تزداد إلتصاقاً بي:

- إنه.. هو...

حملتني قدماي على الأرض بالكاد. وتردد صوت خلفنا يصيح:

- "ناستنكا"! "ناستنكا"! أهذه أنتِ؟

في تلك اللحظة نفسها، خطا الشاب نحونا بضع خطوات.

يا ربي! يا للصيحة التي أطلقَتْها! ويا لتلك الرعشة التي تملكَتْها! وتملصت من بين ذراعي وصارت تقفز من على الأرض، وأسرعت محلقة لملاقاته! وقفت أتطلع نحوهما مثل المقتول. وما أن مدَّت يديها نحوه وارتمت بين أحضانه، حتى استدارت ثانيةً، واندفعت نحوي بسرعة البرق مثل الريح، وقبل أن أثوب إلى رشدي، أمسكت رقبتي بكلتا يديها، وقبَّلتني قبلةً حارةً قوية. بعد ذلك ودون أن تنطق بكلمة واحدة، عادت مسرعةً إليه، ثم تأبطت ذراعه وسحبته معها.

وقفت طويلاً أتابع أثرهما، حتى غابا تماماً عن أنظاري.

الصباح

انتهت لياليَّ في هذا الصباح. كان النهار قاتماً، حيث تساقط المطر، وأخذت حباته تقرع زجاج النافذة بدقات حزينة. وخيمت العتمة على حجرتي، وغطَّت الغيوم فناء البيت. وشعرت بصداع في رأسي وبدوار شديد، وبالحمى تجتاح أرجاء جسمي.

تردد صوت "ماترينا" من فوق رأسي تقول:

—أتتك رسالة يا أخانا العزيز، عن طريق بريد المدينة، وقد جاء بها ساعي البريد.

قفزتُ من فوق المقعد وأنا أصيح:

—رسالة! ممن؟

—لا أعرف يا أخانا العزيز، انظر بنفسك، ربما مكتوب بها اسم المرسِل.

فضضتُ الرسالة، وكانت منها!

كتبت "ناستنكا" تقول:

"أرجوك أن تغفر لي وتصفح عني! أجثو على قدمي وأتوسل إليك أن تصفح عني! لقد خدعتُك وخدعتُ نفسي.. كان حلماً، وكان خيالاً... كم أتألم اليوم من أجلك، فسامحني واغفر لي... لا تلُمني؛ لأنني لم أخن كلماتي لك. فقد صرحت لك بأنني سوف أحبك، وأنا أحبك الآن بالفعل، بل أكثر من الحب نفسه، يا ربي! لو كان بمقدوري أن أحبكما كليكما في آنٍ واحد! ليتك كنت هو، وليته كان أنت."!

دارت في ذهني عبارتها: "ليتك كنت هو". لقد تذكرت كلماتك يا "ناستنكا"!

"يشهد الله على ما أود القيام به من أجلك! فأنا أدرك ما تعانيه من حزن وألم. لقد أسأتُ إليك، لكنك تعلم أن من يحب سرعان ما ينسى الإساءة. وأعرف أنك تحبني، أليس كذلك؟ أشكرك! نعم! لك مني كل العرفان على هذا الحب؛ لأنه انطبع في ذاكرتي مثل حلم حلو المذاق، ذلك الحلم الذي يظل المرء يتذكره طويلاً بعد اليقظة، ولأنني سأظل أتذكر إلى الأبد، تلك اللحظة التي فتحت لي فيها نوافذ قلبك بكل إخاء،

واحتضنتَ بكرم نفسك وسخاء روحك قلبي الجريح؛ كي ترعاه، وتواسيه، وتداويه، ولو صفحتَ عني فسوف تظل ذكراك مجيدة وعظيمة في نفسي، بكل مشاعر الامتنان الخالدة نحوك، والتي لن تُمحى من روحي إلى الأبد.. وسوف أحافظ على تلك الذكرى وفية لها، لا أخونها ولا أخون قلبي، وسوف تظل باقية طوال العمر.

فها هو قلبي قد عاد سريعاً أمس إلى من امتلكه للأبد. سوف نلتقي مجدداً، وسوف تأتي لزيارتنا ولن تتركنا، وسوف تظل صديقي الأبدي وأخي المخلص... وعندما نلتقي فسوف تمدُّ يدك إليَّ؟ أليس كذلك؟ سوف تمد يدك إليَّ؛ لأنك صفحت عني، أليس كذلك؟ أما زلت تحبني كما أحببتني من قبل؟ أرجوك أن تحبني ولا تتركني، ويا ليتك تدري كم أحبك في هذه اللحظة، ولأنني جديرة بحبك، ولأنني أستحق هذا الحب... يا صديقي الحبيب! سوف أتزوج به في الأسبوع القادم. لقد عاد غارقاً في الحب، ولم ينسني أبداً... ولا تغضب إن كنتُ أكتب عنه، وأود المجيء لزيارتك معه، وسوف تحبه، أليس كذلك؟"سامحني، وتذكر وأحبَ دائماً عزيزتك ناستنكا".

قرأت هذه الرسالة مراراً لفترة طويلة. وسالت الدموع من عيني. وأفلتُّ الرسالة من يدي أخيراً، وغطيت وجهي بيدي.

صاحت "ماترينا" فجأة:

- أنت يا زهرة الشباب! يا زهرة الشباب!

- ماذا تريدين يا عجوز؟

- ها أنا نزعت كل خيوط العنكبوت من السقف، والآن يمكنك الزواج، أو دعوة الضيوف لزيارتك كما يحلو لك.

نظرت إلى "ماترينا". كانت عجوزاً شابة تتمتع بحيوية عالية ونشاط دائم. ولكني لا أدري لما بدت لي نظراتها خابية، ووجهها ممتلئاً بالتجاعيد، مقوَّسة الظهر ومتهالكة البدن.. كما أنني لم أدرك لمَ تخيلت أن حجرتي دبَّت في أوصالها الشيخوخة بدورها، وصارت مثلما أصبحت العجوز. لقد فقدت الجدران والأرض ألوانها، وأصابها الشحوب، وأمسى كل شيء في الحجرة باهتاً، وانتشرت خيوط العنكبوت وتكاثرت. وعندما تطلعت عبر النافذة، لا أدري لما بدا لي أن المنزل المقابل، قد شاخ وتهالك أيضاً، وتساقط طلاء أعمدته،

واسودَّت أفاريزه وتصدعت، وتلطخت جدرانه بالبقع حتى اختفى لونها الأصفر المشرق السابق.

ربما كان السبب في ذلك أن شعاعاً للشمس قد أطلَّ فجأة عبر الغيوم، ثم سرعان ما توارى ثانية خلف غيمة ممطرة، فصار كل شيء في نظري قاتماً من جديد، أو أن كل آفاق مستقبلي الحزينة والعابسة، مرَّت أمامي في طرفة عين. وشاهدتُ نفسي بعد انقضاء خمسة عشر عاماً، على نفس حالي اليوم، وكما أنا اليوم، وقد أصابني العجز، وما زلتُ في هذه الحجرة عينها، وحيداً كما كان حالي دائماً، مع "ماترينا" نفسها التي لم تنجح كل تلك السنوات في أن تجعلها أكثر حكمة.

لن أتذكر أبداً يا "ناستنكا" أي ألم أصابني، ولن ألقي بتلك الغيمة السوداء نحوك لتعكِّر صفو سعادتك الصافية الساجية، ولن أبعث الأسى في قلبك باللوم المرير، أو أبث فيه ظلالاً خفية لعذاب الضمير، وأدفعه أن يخفق بنبضات الحزن في لحظات فرحك وسعادتك، ولن أدع الذبول يصيب زهيرة واحدة من تلك الزهيرات الصغيرة الرقيقة، التي تزينين بها ضفائرك السوداء، يوم تذهبين معه إلى الهيكلة للزفاف..

لا، لن أفعل هذا أبداً، أبداً! فلتظل سماؤك صافية، ولتظل بسمتك الوديعة مضيئةً مطمئنةً، وليباركك الله يا من وهبتِ لحظات من النعيم والسعادة، لقلب آخر وحيد ممتن يعيش في وحشة من العزلة.

يا ربي! لحظة بأكملها من النعيم! أليست كافيةً لحياة الإنسان حتى نهايتها؟

"تمت بحمد الله وتوفيقه"